BOBST LIBRARY
3 1142 02605 7722

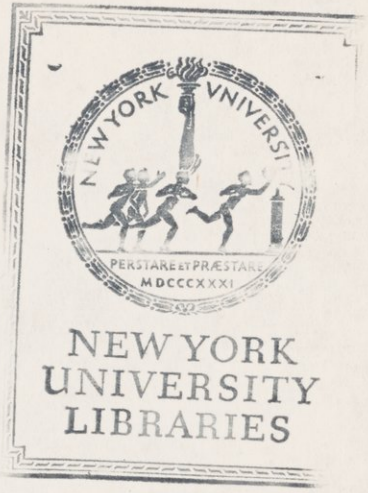

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

New York University
Bobst, Circulation Department
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

Web Renewals:
http://library.nyu.edu
Circulation policies
http://library.nyu.edu/about

THIS ITEM IS SUBJECT TO RECALL AT ANY TIME

DUE DATE
JUL 16 2013
BOBST LIBRARY
CIRCULATION

RETURNED
MAY 10 2013
BOBST LIBRARY
CIRCULATION

DUE DATE
SEP 07 2013
BOBST LIBRARY

NOTE NEW DUE DATE WHEN RENEWING BOOKS ONLINE

للمؤلف

العقم والسلالة الجنسية سنة ١٩٣٦

من الاحتلال الى الاستقلال (طبعة اولى) 〃 ١٩٤٤

〃 〃 〃 〃 (طبعة ثانية) 〃 ١٩٤٦

Ḥannā, Jūrj

الدكتور جورج حنا

Anā ʿā'id min Mūskō.

أنا عائد من موسكو

1947

١٩٤٧

Near East
DK
601
.2
.H3
C.1

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف

مقدّمة

هل تذهب الى موسكو ؟

القى عليّ هـذا السؤال مندوب جمعية العلاقات الثقافية بين الاتحاد السوفياتي والبـلدان الاجنبية (Voks) عندما زارني في مطلع عام ١٩٤٧ ، بناء عـلى اشارة تلقاها من مركز الجمعية المذكورة في موسكو ، ترغب اليه فيها توجيه الدعوة لبعثة ثقافية تزور البلاد السوفياتية ، لتطلع على تطورات الثقافة فيها ، ولتمكين الروابط الثقافية بينهـا وبين جمهوريتي لبنان وسوريا ، وهي عادة درجت عليها هذه المؤسسة بارسال بعثات من قبلها الى البـلدان الاجنبية ، واستقبال بعثات اجنبية من كل دولة مستقـلة ترغب في الاندماج بهذا العالم الانساني الواسع .

قلت لمحدّثي : لقد فاجأتني بالسؤال ، فاسمح لي بيومين لاعطيك الجواب بعد ان اكون قد درست الامر من جميع نواحيه .

يومان قضيتهما بالتفكير والدرس . هـذه أمنية طالما دغدغتني منذ سنوات ، تأتيني بوادر تحقيقها عفواً . هناك عالم مجهول ، ولغز يحار العالم في حلّ رموزه وغوامضه ، ودعايات ايجابيـة ودعايات

سلبية تحوط به من كل جانب ، ودنيا جديدة يشيد بمدحها البعض ويغرق في تقبيحها البعض الاخر ، فهل ادع هذه الفرصة تفلت من يدي وقد سنحت لي عن غير قصد وبدون ميعاد ؟

على اننا في صميم الشتاء ، والبرد يقرسني هنا في بيروت ، فكيف اتحمّل صقيع روسيا ؟ وماذا تكون حالتي بين ثلوج « الاورال » وجليد « الفولكا » ؟

وهذه الطائرة التي اسلمها نفسي في هذا الفصل الهائج ، هل تراها ترفق بي وبعيالي ، أم تخونني فتقذف بي في مجاهل الآفاق ، لتترك لي في بيروت ارملة ويتيمتين يبكين سندهن الوحيد في هذه الدنيا ؟

ويقول لي بعض الاصدقاء ، مالك ولهذه المغامرة يا رجل ، فانت لن تستطيع الوصول الى حلّ اللغز ، والعالم السوفياتي اعمق من ان تدركه انت ، وابوابه محكمة الاقفال تراقبها وتراقبك ايضاً عيون الجواسيس ولن يفتح لك منها إلا ما ترغب فيه السلطات ، اما السرّ فسيبقى سراً عليك كما بقي سرّاً على غيرك ، وانت لن تكتشف القمر بهذه الرحلة ، فضلاً عن تعرضك للجاسوسية السوفياتية ولما قد تجره عليك من المخاوف .

ويكثر اللغط ، والقيل والقال ، حول هذه الرحلة . فمن قائل انها دعاية سوفياتية شيوعية ، ومن قائل ان القصد منها التقارب بين العالم السوفياتي وبلدان الشرق العربي ، ويرى فيها البعض سبيلاً للتعاون الثقافي بيننا وبين هذا العالم الجديد ، وخطوة مباركة في توثيق العلائق بين الشعوب ، اذ ان السبيل الثقافي هو افضل السبل لهذه الغاية ، فالسلام الذي يتشدّق به اقطاب الدول

والحكومات لن يستقرّ في العالم عن طريق البعثات العسكرية والسياسية ، بل عن طريق البعثات الثقافية ، لان هذه تعمل في سبيل المثل العليا التي يخدمها العلم ، متى تحرّر العلم من مطامع السياسة ونواياها واغراضها .

ثم رجعت الى نفسي اناجيها الامر واستوضحها عمّا اجيب على سؤال المندوب فقالت لي نفسي :

اما الشتاء ، والبرد ، والصقيع ، والثلوج ، فاليك في الاسواق ما يقيك شرّها . واما أخطار الطائرة فسلمها للقدر ، وقل لاصدقائك الذين يحاولون اقناعك بان ابواب العالم السوفياتي ستكون مسدودة في وجهك ، قل لهم ، انك لست متطفلاً في هذه الزيارة ، وان المرجع الداعي لم يكن مجبراً على دعوتك ، وان دعوته الاختيارية لم تكن لو انه اراد ان يبقى منكمشاً على نفسه ، اما ان يقال فيك انك داعية من الدعاة ، فان ماعودت الناس ان يروه فيك من الصراحة الجامحة يغنيك عن الرد على اقوال المتقولين ، وعندما تعود من هذه الرحلة يرون فيما تقوله وتكتبه اي رجل انت ، فلو عرفك الناس كما اعرفك انا ، لادركوا انك لست من الذين يسهل اجتذابهم الى ما لا ترضى عنه عقيدتهم ، فاذهب تحرسك العناية ، فانك تعودت على المغامرات ، ولتكن هذه المغامرة حلقة في السلسلة .

أقنعتني نفسي عن سماع كلام الناس فقلت ، انا ذاهب الى موسكو ، واجبت على الدعوة بالقبول .

*

وهل انت شيوعي ؟

كان عليّ ايضاً ان أجيب عن هـــذا السؤال لجماعات من المتسائلين الفضوليين الذين ادهشتهم هـــذه الدعوة ، وراحوا يعلقون عليها تعليقات مختلفة ، منها ما هو مطبوعٌ بطابع الدسّ السياسي ، ومنها ما هو ملتقطٌ من الالسنة المغرضة ، ومنها ما هو من قبيل المعرفة بالشيء فقط ، فكنت في اجوبتي صريحـــاً مع السائل البريء ، متهكماً على السائل المشكوك ببراءة سؤاله ، فان بيني وبين قرائي ذمّة لا اتغاضى عنها ، كما ان لهم عليّ ديناً سجلته على نفسي بعقيدة اجتماعية تقدمية حرّة ، وعقيدة سياسية لبنانية ، لا يستهويني من مبادىء الغـــير وعقائده وانظمته الا ما كان منه الخير لوطني وللعائلة الانسانية .

ومع هذا ، فالرحلة التي أقوم بها هي رحلة دراسية ثقافيـــة ، لا سياسية ، ولا اخال ان المؤسسة الداعية تجهل اني لست شيوعياً ، وقد لا يهمها من امري اذا كنت مؤيداً للشيوعية ام لا ، فما هي هذه الضجة القائمة حول هذه الرحلة ؟ في حين ان بعثات تذهب الى بلدان أخرى وبعثات تجيء منها فتزود الذاهبة بالتمنيات ، وتستقبل الآتية بالترحاب ، والسياسة - لعن الله السياسة - مطمئنة حيناً وحائرة حيناً آخر .

لقد أصبح العالم اليوم أصغر من ان يحتمل التفريق والتقطيع بين مدنياته ، ولقد أصاب الانسانية من الالام ما يهيب بهـا الى السعي لتوحيد مبادئها ، او على الاقل الى التقارب بينهـا ، تخلصاً من شره الانسان وجشعه ، ولن يكون ذلك ما دام الانسان يحذر من اخيه الانسان ، او ما دام الطمع يساور بعض الناس ، أكانوا

اولئك دولاً أم شعوباً ، ومـــا دامت العقلية السياسية مشبعة بروح الأثرة وحب السيطرة والتغلب ، فاذا كان من امـل يرجى لخلاص الانسانية من ويلاتها ، فهو الامل الذي تبعثه في النفوس جهود العاملين لتغذية قيمها الروحية عن طريق الثقافـــة والعلم ، لا عن طريق السياسة والتقاتل والشهوات .

*

منذ الساعة التي قررت القيام بهذه الرحلة بدأت اضع التصاميم للامور التي ساوليها اهتمامي في اثناء وجودي في البلدان السوفياتية ، وقد كان من الطبيعي ان اضع في رأسها الامور الصحية والطبية التي تطنب بها المجلات الطبية الاميركية ، والتي استرعت انتباه وزيرنا المفوض في موسكو ، فالحف في طلب اطبـاء لبنانيين يعنون في درسها ، فاهملت حكومتنا طلبه ، لسياسة عليا قد تراها لا تتفق مع طلب الوزير . ولكن ما لنا ولسياسة الحكومات ، فالعلم هو قبلتنا ، نستقيه من اية ناحية اتى .

وطبيعي ايضاً ان ادرس هذا العـــالم الجديد الذي يشع من الشرق هذه المرة . لقد زار الاتحاد السوفياتي كثيرون من الاجانب ووضعوا المؤلفات المطولة عنه ، ولعلي اكون اول من يكتب كتاباً عربياً عن الجديد في هذا العالم ، فيأتي كتابي صورة حقيقية عن الحالة فيه من وجهاتـــا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، والسياسية ايضاً ، متوخياً فيما اكتب الحقيقة المجردة ، بعيـدة عن كل دعاية ايجابية او سلبية . لن يكون كتابي هذا دعاية شيوعية ولكني لن اغمط حق الشيوعيـــة اذا كان فيها ما يحسن اقتباسه .

قد لا يصلح اقتباس نظام بكامله ، ولكن اذا كان في هذا النظام ما هو خليق بالاقتباس ، فلماذا يرذله المرء لمجرد كونه شيوعياً او غير شيوعي . فهل من ينكر ان في النظام الفاشستي نفسه كثيراً من الحسنات كما فيه كثير من السيئات ؟ وهل النظام الديموقراطي الذي يحاولون فرضه على علاّته هو النظام الامثل للشعوب كافة ؟ فما معنى هذا التعصب النظامي الذي تعمل له السياسة المغرضة ؟ لنكن اذن واقعيين ، ولنحسن اقتباس الحسن معرضين عن السيء ، أكان الحسن او السيء ، من روسيا او من اميركا ، او من انكلترا او من الصين ، او من بلاد الواق الواق ، فالعالم بحاجة الى الاختلاط والتمازج لكي يجد طريقه الى التقدم والعمران والازدهار . انا لست متعصباً لنظام ما ، واني ادرك ان ما من بلد يوافقه ان يقلد بلداً آخر تقليداً اعمى ، فلكل بلد حضارته ، ومناخه ومزاج سكانه ، وعاداتهم وتاريخهم ، كل هذه الامور يجب ان تؤخذ بعين البصيرة والاعتبار ليأتي اقتباسه للجديد موافقاً لبيئته ضامناً سيره الحثيث نحو التقدم المنشود . وعلى هذه النية الواعية ساسعى في هذا الكتاب لدرس العالم السوفياتي على ضوء الوعي العلمي والتقدمي لعلي اؤدي خدمة انسانية وخدمة وطنية لوطني الذي احببته والذي لا يثنيني عن حبه وخدمته اية دعاية ، ارضية او سماوية .

*

لقد ذهبت الى الاتحاد السوفياتي حرّاً ورجعت منه حرّاً . وقد قطعت في هذه الرحلة اثني عشر الف كيلومتراً وزرت موسكو ولينغراد والجمهوريات الاسيوية الاسلامية ، وخبرت

معالم المدنيـــة هناك ، وفحصت بنفسي امورها . واذا كنت لا أصف رحلتي كرحلة فذلك لأن ما يهمني ويهمك من هذا الكتاب ايها القارىء ، هو ان تعرف مني عن حياة الشعب السوفياتي اكثر مما تعرف عن سياحتي .

وهنا أريد أن اكون منصفاً فأقول اني ما شعرت مرة اثنـاء وجودي هناك اني كنت مراقباً ، ولم يعترضني أحـد في رواحي ومجيئي وتطوافي في الشوارع ، وطالمـا ضحكت من الذين كانوا يوهمونني بان الجواسيس سيحيطون بي من كل جانب ، وانني لن اترك حراً في احاديثي مع الناس ، بل اكثر من ذلك فأنا اعترف صادقاً ، اني كنت هناك المراقب ، ورجل التحري ، والجاسوس اذا شئت ايها القاريء ان لا تستغني عن هذه التسمية ، فلم يمرّ عليّ يوم لم اقض من ساعاته ثلاثاً او اربعـــاً ، اذهب الى حيث اريد واخالط من اريد ، ادخل مخزناً للتفرج او للشراء ، أو اتنـاول طعامي في مطعم ، أو اجالس صديقـــاً تعرفت اليه ، او اكرع كأساً من الفودكا مع جماعة من الروسيين والروسيات في قاعـــة موسيقية . وقد كان لهـــذه المخالطات اثر في نفسي ، واستطعت بواسطتها ان ادرس ما توخيت درسه لانقله الى قرائي نقلاً صادقاً . وها اني فاعلٌ ذلك بتجرّد واخلاص .

وقد يجيء في هذا الكتاب من الشواهد والملحوظات ما يروق لبعض القراء وما لا يروق للبعض الآخر ، ان هنا وان هناك ، فانا لا اتوخى في حالتي النقد والتحبيذ الا ان ابسط الحقيقة كما شاهدتها ، اعتقاداً مني ان الحقيقة وحدها هي الطريق القويم لتنوير

الاذهان والنفع العام . ولذلك فاني استميح المعذرة من الذين قد يطالهم النقد ، كما اني ارجو ان لا يدخل في خلد احد ان تحبيذي يقصد منه الدعاية لأي كان . فاذا ظهر في هذا الكتاب ما فيه الاساءة لاحد ، فشفيعي في ذلك حسن القصد والنية .

لن تجد في هذا الكتاب ، ايها القاريء ، وصفاً مسهباً للرحلة اذ ليست الغاية منه ان اطلعك على سياحتي وعلى ما زرته من المتاحف والمسارح والمدن ، فاذا كانت هذه الامور فسحت لي مجال الانشراح وشم الهواء والتعرف الى ما تسر به النفس غير انها ليست مما يهمك الاطلاع عليه ، ولذلك لن اذكر من هذا القبيل الا ما كان له علاقة بالموضوع الاصيل الذي كتبت من اجله هذا الكتاب الا وهو تعريف هذا العالم الجديد ومدنيته وحياة شعبه وتطورها لتحكم بنفسك له او عليه من الوجهة المبدئية والانسانية وتأثير ذلك في التطور العالمي الجديد .

واذا تعذّر عليّ الالمام بكل الامور ، فالسبب هو ان الرحلة لم تطل اكثر من شهر ، ولكني سعيت جهدي للاحاطة بكل ما رأيت وعرفت وخبرت : فانا لم اضع ساعة واحدة من هذه المدة الا اغتنمتها للدرس والبحث والتنقيب . وانا اذ اقدم هذا الكتاب فآمل من قرائي ان يطالعوه بالروح نفسها التي اوحته اليّ في وضعه لعلي أصل واياهم الى الغاية التي نهدف اليها .

فاليك ايها القاريء ابثّ هذه المعلومات . والسلام عليك من

الدكتور جورج حنا

الفصل الاول

« عالم جديد »

عالم ليس كبقية العوالم - قارة بيضاء - شعب يكدح - من لا يعمل لا يأكل - تقنين وحرمان لا فقر وجوع - نظام ايجارات المساكن - شعب يتعشق الموسيقى والفن - رهين النظام - يحب الغريب ولكنه حذر - ثقة الشعب بنفسه - تشرشل وترومان .

منذ ان وطئت قدماي الاراضي السوفييتية شعرت بأني ادخل عالماً جديداً يختلف كل الاختلاف عن بقية العوالم . فمقاييس الحياة فيه قائمة على اسس غير الاسس المبنية عليها مقاييس الحياة في البلدان الاخرى . وطقوس المعيشة اليومية مختلفة عنها في انكلترا مثلاً ، أو في اميركا ، أو في فرنسا ، أو في لبنان . وتقدير الكفاءآت له ميزان خاص وطابع فريد . ومفاهيم القيم الروحية والادبية والمادية هي على غير ما هي خارج العالم السوفياتي . والحريات لها معنى مستخلص من الواقعية لا أثر فيها لاعتبارات عقائدية او روحية . والأخذ والعطاء مرهون بنظام موضوع لا يستطيع أحد ان يحيد عنه . والتأميم المطلق يشمل كل شيء :

التعليم ، والطبابة ، والصناعة ، والتجارة ، وجميع الحرف واماكن اللهو والفن . والنظام له قدسية لا يطالها نفوذ أي كان ، ولا تقف في طريقه شفاعة ، ولا تحدّ من حرمته وساطة او سلطة . ومخالفة النظام تقابله قسوة في الجزاء لا تحترم كبيراً ولا صغيراً ، لا ميزة هناك لوزير على عامل في احترام القانون والتقيد به ، حتى طبيعة الارض والمناخ فيها شيء من الاختلاف عن الطبيعة في الاراضي الاخرى . فقد عشت مدة خمسة وعشرين يوماً قطعت في اثنائها الارجاء الواسعة ، فلم تطأ قدماي تراباً على الارض ولا تبللتُ بمطر ينزل من السماء ، بساطٌ من الثلج فوق قارة بيضاء لا يسعك عندما تراها او تطير فوقها الا ان تعترف لنابليون وهتلر بعبقرية الجنون التي آلت بهما الى الفناء دون ان ينالا مأرباً من ذلك الدب الابيض الرابض في عرينه هازئاً بالموت مكشراً في وجه الفاتحين .

وقد يخيل اليك ان هذه الكسوة الواسعة من الثلوج والجليد قد تحول بين الناس وبين العمل المستمر ، وقد تظن أن فصل الشتاء هو فصل الراحة والكسل ، ولكنني كنت هناك في النصف الثاني من شهر شباط وفي النصف الاول من شهر اذار ، اقسى ايام السنة ثلجاً وجليداً ، وصقيعاً ، فما رأيت احداً مستسلماً الى غضب الطبيعة ، بل رأيت الناس يتحدّون زمجرتها بصلابة وعناد كأنهم خلقوا ليظلّوا في عراك مستمر مع هيجانها ، عراك اوجد في اجسادهم خشونة ، وفي صدورهم عزيمة ، وفي نفوسهم ايماناً بحقهم في الحياة وجلداً على احتمال الصعاب يندر وجوده في غيرهم من شعوب الارض جمعاء .

واني ساعٍ فيما يلي بان اصف لك هذا الشعب وحياته على قدر ما مكنني الوقت الذي قضيته معه ، معتذراً عن اي تقصير ، سببه فقط قصر المدة التي حييتها هناك ، ومعتذراً ايضاً عما قد يجيء في هذا الكتاب من اخطاء اذا نسبتها الى شيء فارجو ان لا تنسبها الى سوء قصد او سوء نية ، فانا لا ادّعي العصمة والعصمة رابعة المستحيلات .

ان العالم السوفياتي قائم على العمل والكدح . لا مجال فيه للراحة والكسل ، والذي ينشد هذه او ذاك « فلينشدهما في خارج عالمنا » هكذا يقول « سيمونوف » الكاتب السوفياتي الكبير .

« من لا يعمل لا يأكل » هذا هو المبدأ الاساسي الذي يرتكز عليه النظام السوفياتي . ان الفرد غير مجبر قانونياً على العمل ، ولكن بطاقة الاعاشة الشهرية لا تعطى الا لمن يعمل ، ومن ذا الذي يستطيع ان يعيش بدونها ؟ فالمواد الغذائية والكسائية الموزعة بموجب التقنين وبموجب البطاقة التي يحملها كل فرد تشترى باسعار رخيصة هي في متناول كل عامل ، ولكن الاسعار في السوق الحرة تبلغ في ارتفاعها حداً جنونياً بحيث انه من الصعب على احد ان يتمكن منها في معيشته الدائمة . ولهذا فالذي يكسل عن العمل يجوع ولا يجد سبيلا الى الحياة . ولم ارَ في الاتحاد السوفياتي من يتكل على الاستعطاء و التسول ، وفي المدة التي قضيتها هناك كنت أفتش عن شحاذ يطوف الاسواق ماداً يده الى المحسنين فلم اعثر على احد منهم ، اللهمّ الا عندما زرت الجامع والكنيسة ، فالتقيت بعشرين شحاذاً على باب الاول وبخمسة

شحاذين على باب الثانية داخل الباب الخارجي ، فقلت لعل اولئك يريدون ان يتمموا الاقوال الالهية « من اعطى فقيراً اعطى الله ». اما الحكومة فلا تمنعهم عن التصرف بمسكنة هم يجيزونها لانفسهم ما دامت مسكنتهم لا تخرج بهم الى الحياة العامة ، ولربما كان هذا فصلاً من فصول حرية المعتقد الديني.

ان الحياة في روسيا حياة عمل وكدح . ومصنع دائم الحركة والانتاج . الزوج يشتغل ، والزوجة تشتغل ، والاولاد ذكوراً واناثاً عقب انتهائهم من سن الدراسة الثانوية يشتغلون ، الا من ذهب منهم الى الدروس العالية . اما الاجور فهي متفاوتة ، كل حسب انتاجه واهمية عمله . وهي تقدر تقديراً حسابياً منتظماً بحيث انها تكفل لصاحبها العيش والكفاف مع بعض الزيادة للمصروفات الاخرى . اما سن التقاعد فهو الخامسة والخمسين حين يحق للفرد ان يتقاضى معاشاً تقاعدياً ، واذا رغب في استمرار العمل فله ذلك ، وعندئذ يقبض زيادة معاشية . واذا استثنيت العجزة والمعتلين استطيع القول ان ما من احد يترك الشغل في ذلك العمر . وقد رأيت مئات بل الوفاً من ابناء الستين او اكثر لا يزالون يشتغلون وينتجون ويقبضون .

شعب يكدح ويتعب وينتج .

*

وهذا الشعب الكادح يعيش بنظام التقنين ، وهو ساري في البلاد السوفياتية كلها ، ويشمل الجميع . في يد كل انسان بطاقة شهرية يشتري بموجبها غذاءه وكساءه من المخازن التعاونية . لكل

فئة معاشية مخازنها . فالعامل الذي يتقاضى خمسمائة روبل ، يشتري من مخازن لا تبيع الذين يتقاضون الالفي روبل . لا مجال لاستفادة صاحب المعاش الكبير من قوت صاحب المعاش الصغير . المساكن تؤجر بنسبة المعاشات . كل يدفع اثنين بالمائة من معاشه . والحكومة هي التي تؤجر ، اذ لا يوجد ملاكون يتحكمون باجور المباني . والحكومة تعطي المنازل للسكان حسب حاجتهم اليها ، فلا يستطيع صاحب المعاش الكبير ان يستأجر بيتاً كبيراً فيحرم صاحب المعاش القليل من مسكن يأوي اليه . وقد يوجد عائلتان متساويتان في العدد وفي المسكن ، هذه تدفع عشرة روبلات في الشهر والثانية تدفع خمسين روبل ، والمسكنان متساويان ولكن معاشات افراد هذه تزيد عن معاشات افراد تلك . وتقدير اتساع مساكن الناس راجع الى الحكومة ، لكل شخص كذا امتار مربعة ، تزيد او تنقص وقفاً على وجود ازمة المساكن او عدمها . لا ملكية عقارية للتأجير ، ولكنك اذا استطعت ان تبني بيتاً لسكنك فلك هذا ، واذا اردت ان تبني قصراً ، فلا يمنعك احد شرط ان تسكنه ولا تؤجر جزءاً منه . ان لك الحق في ملكية بيت للسكن تورثه لوارثيك ، كما ان لك ملء الحق بتوريث اموالك المنقولة كلها . ولكن ما لا يحق لك ، هو ان تملك بناء او ارضاً للاستثمار ، فالاستثمار هو من حق الدولة وحدها .

ان الشعب السوفياتي يقاسي حرماناً ملموساً ، ولكن الحرمان شيء والفاقة شيء آخر . فهناك لا ترى ثراء واسعاً ، ولكنك لا ترى فقراً مدقعاً . من النادر ان ترى سيدة تلبس الدمقس والحرير

الممثلة « لبيشنسكايا » ـ في الاوبرا

المزخرف ، او رجلا يتأنق في لباسه ويغير ثوباً كل يوم ، ولكنك بجانب هذا ، لا ترى من يمشي حافياً او من لا يقوى على كسائه الضروري . واذا لم يكن هناك من يقيم المـــآدب ، فلا يوجـد ايضاً من ينام جائعاً او من يحرم من كفاف العيش. توجد فروقات معيشية بين اصحاب المعاشات الكبيرة والصغيرة، ولكنها فروقات معقولة ومقبولة من الصغار ، لان هذه الفروقات مبنيـة على اساس الفرق في الانتاج بين الناس . فالعامل الذي يعمل في تحريك آلة ميكانيكية مثلاً ، او الذي يعمل في جرف الثلوج من الشوارع لا يحسد ذلك العامل الذي تتوقف على خبرته ادارة المحرّك او ذلك المؤلف او المهندس او الطبيب . كل حسب اهليته وانتاجـه ، لا حسد ولا تحاسد ، لا غبن في التوزيـــع ، ولا شفاعة في التقدير ، اوتوماتيكية منتظمة على ادق القواعد العلمية والحسابية .

نعم ،ان الشعب السوفياتي يقاسي حرماناً ، ولا اظنه يقاسي من الحرمان اكثر مما يقاسيه بعض الشعوب الاخرى . ولكنه راض عن هذا الحرمان لاعتقاده انه يبني مستقبلا لن يزهر الا اذا عمل في سبيل تقوية انتاجه . ولهذا تجده يقبل بهذه التضحية ويراها نعمـة موفورة تجاه ما قام به من التضحيات في الحرب . هو يعمل للجيل القادم ،وهو واثق من مصيره.

تحدثت الى سيدة تشتغل في الفندق الذي كنت اسكنه في مدينة لينغراد . سألتها عن تتألف عائلتها ، فاجابت ان لها زوجـاً وطفلين . هي تشتغل في قسم في الفندق ، وزوجها يعمل مهندساً في احد المعامل ، والطفلان في المدرسة . سألتهـــا اذا كانت مطمئنة

وراضية عن معيشتها ومعيشة عائلتها، فأجابت انا مطمئنة الى ما تراه فينا من الحرمان اذ لولا ذلك لما رأيت المدارس والمستشفيات التي رأيتها فهـــذا الحرمان هو الذي يكفل لاولادي التعليم ، وهو الذي يمنع عنهم وعن امثالهم الجوع والمرض والفاقة ، وهو الذي يضمن لهم بسطة العيش عندما يشبعون ، وانا ارى من نتيجة هذا الحرمان، معاهد تقام للعلم ،ومستشفيات تشاد للمحافظة على الصحة ، ومصانع تعمل لتقوية الانتاج ، وليس هناك من طبقة تستفيد من حرماني انا ، لتعيش هي عيشة الراحة والثراء . نحن في طور البناء ، والبناء يقضي علينا بالحرمان ويستلزم الكدح والعمل للتوصل الى الهدف الذي نصبو اليه .

وهذا الشعب العامل الكادح تتغلغل في اعمـــاق حياته محبة الموسيقى والفن . كيفما ذهبت ، والى اي مصنع دخلت ، ومـع من اجتمعت ، تلمس لمس اليد تعشق الشعب السوفياتي للالحان الموسيقية وللالات الموسيقية ، ولا يكاد العـــامل او الموظف او المستخدم ينتهي من عمله حتى يذهب الى نادٍ او سينما او اوبرا . وفي كل غرفة ، وفي كل معمل ، وفي كل ساحة عامة ، وفي اكثر السيارات تجد مكبراً للصوت أو جهازاً لاقطاً للاذاعة تسمع منها أشجى الالحان والانغام . قد تجد الكثيرين من الشعب السوفياتي من لم يسمع باسم « مولوتوف » و « فيشنسكي » وغيرهما من رجال السياسة واقطابها (ما عدا ستالين) ، ولكن قلما تجد من لم يسمع « لبينشسكايا » الراقصة المشهورة، حاملة وسام ستالين وعضو المجلس السوفياتي الاعـــلى . او بالموسيقار « مرافنسكي » او بالمؤلف

« حاجي بيكوف »او بالكاتب « ايليا اهرنبورغ ». وانك لتعجب عندما يحدثك ابن الشارع منتقداً هذه المغنية ، وهائماً برقص تلك الراقصة ، ومحللاً رواية فنية ، كأن الفن قطعة من حياته . النوادي الموسيقية لا يحصى لها عدّ والمسارح التمثيلية منتشرة في كل الارجاء ، والسابق السابق من يحظى بالدخول اليها قبل غيره.

ان مؤلفي الموسيقى وواضعي المسرحيات هم من ابناء الطبقة الارستوقراطية ، اذا جازت هذه التسمية ، وهم اصحاب الدخل الاكبر في البلاد ، وهم الذين يتمكنون بأن يعيشوا بوفرة اكثر من غيرهم. فاذا ما وضع احدهم مسرحية وقبلت من الاكاديمية الفنية يقبض عليها فوراً مبلغاً من المال يتراوح بين العشرين والثلاثين الف روبل عدا عما يقبض من نسبة مئوية من المدخول عندما تمثل مسرحيته على أي مسرح من مسارح الاتحاد السوفياتي كله . هذا فضلا عن مركز ادبي واجتماعي لا يتمتع به وزير ولا موظف كبير. لم أرَ في البلاد السوفياتية امرأة لا تشتغل ، ولكنني رأيت من نساء مؤلفي الموسيقى وارباب الادب والقلم من يعشن على حساب أزواجهن الاغنياء نسبياً . ولم أرَ شيئاً رخيصاً في الاسواق الحرّة إلا الكتب والقطع الموسيقية . هم يسهلون على الناس التمتع بالادب والفن قبل ان يسهلوا عليهم معالم الابهة والترف . حتى الاطفال في دور الحضانة وجنائن الاطفال يربونهم على تعشق الفن والموسيقى على يد اساتذة اخصائيين ، كأنهم يريدون ان يصرفوا اذهان الناس عن الاهتمام باللذاذات المادية الى اللذاذات الروحية .

لن أصف ما شهدت من حفلات او من مسارح التمثيل بالرغم

بما هنالك من مجال للوصف يدعو الى الاعجاب ، اذ اني اقصد فقط ان المح الى الروح النفسية الفنية وطغيانها على معالم الحياة الروسية لاخلص الى القول ان الحياة هناك هي عبارة عن رواية ذات فصلين الفصل الاول عمل وكدح ، والفصل الثاني فن وموسيقى وغناء . على ان ما لاحظته في ارتيادي مسارح الاوبرا والغناء والتمثيل هو ان المواضيع التي يدور عليها الفن هناك هي مواضيع توجيهية أخلاقية وطنية ، لا تبذل في روايات الحب ، ولا خلاعة في التمثيل. المسرح هو فن ومدرسة لتقوية الروح الفنية والوطنية والنظامية .

*

ما عرفت بلاداً ولا سمعت بشعب عنده حرمة للنظام كالشعب السوفياتي . من الطبيعي ان تكون هذه الحرمة وليدة الاوتوقراطية ولكنها اليوم اصبحت غريزة في الشعب قلما تجد من يتأفف منها ، كأن النظام جبل مع حياته . فكل شيء في الاتحاد السوفياتي يمشي طبقاً للنظام الموضوع . ومن الانصاف ان اقول بأن نزاهة القادة وسمو أخلاقهم واخلاصهم المتناهي وتضحياتهم الشخصية في سبيل المصلحة العامة ، كل هذه الصفات خلقت في الشعب جوا من الثقة لا حد لها .

لا ميزة للوزير على اي فرد كان . ولا محسوبية في الدولة السوفياتية . ولا مسامحة عن مخالفة يرتكبها رئيس او موظف . ولا أبهة وتعظيم لرجال الدولة . ولا رحمة في تطبيق النظام اذا تأخر موظف مهما علا مقامه عن الدوام ، فجزاؤه قد يمشي به الى السجن . عرفتُ من احد المطلعين قصة اوردها بهذه المناسبة

للدلالة على القسوة في تطبيق النظام . قال محدثي : ذهب مرة وزير المواصلات الى مدينة لينغراد ، وعند عودته وجد نفسه متأخراً عن موعد مغادرة القطار المحطة بضع دقائق قيل لي انها ثلاث ، فتلفن الى مدير المحطة راجياً تأخير الموعد ثلاث دقائق ، فكانت النتيجة ان القطار لم يتأخر عن موعده لحظة واحدة . اما الوزير فقد أقيل من مركزه فوراً لانه تجرأ على هذه المخالفة وهو المفروض فيه احترام النظام قبل كل انسان .

والنظام محترم الى أقصى حد ليس في الاعمال الحكومية فحسب بل في كل نواحي الحياة والعمل. فاذا رأيت صف المنتظرين على محطة الترامواي او امام دور السينما ، او امام باب المخازن التعاونية في جوّ بارد درجته ثلاثون تحت الصفر ، لا تزاحم ولا تسابق ، ادركت مدى التقيد بالنظام . لا تدخين في قاعات السينما والتمثيل ، ولا فتح ابواب وغلقها بين الفصل والفصل ، لا عبرة للمركز الذي تشغله امام القانون ، بلى ،انه مفروضٌ فيك احترام القانون اذا كنت من كبار الموظفين ، وجزاؤك من مخالفته اشد ممن كان ادنى منك مركزاً. لا لين ولا هوادة .

لقد تحريت اموراً أحببت ان ادونها . سألت عما اذا كانت تكثر في هذا العالم الواسع الشاسع حوادث السرقة والنهب وقطع الطرق ، فعرفت ان هذه الحوادث نادرة الوقوع الى حد العدم . لقد قيل لي انه على اثر رجوع الجيوش من الحرب توالت مثل هذه الحوادث فقمعت بقساوة شديدة . لا اسباب تخفيفية في الاحكام على القتلة وعصابات النهب والسرقة ، ان روح الاشرار

هي بيد القضاة يزهقونها متى رأوا فيها خطراً على الامن وعلى الدولة . انهم يبغون السلام والراحة ، فلا سبيل لدغدغة من يقلق السلام والراحة في عالمٍ يتألف من مائتي مليون من الخلق .

ان احترام النظام والتقيد بالمنهاج امرٌ لا يقبل البحث والجدل . اوتوماتيكية في العمل ودقة حسابية . كل امرىء يعرف ما له من الحقوق وما عليه من الواجبات ، لا هو يطمع في زيادة حقوقه ولا يسعى الى التملص من واجباته . هو عضوٌ مكملٌ في النظام ، مسمارٌ في اضخم وادق جهاز اخترعته عبقرية الانسان .

*

قد يخيل اليك ان هذا الشعب الذي ألف قساوة الطبيعة وذاق عذاب الحرب والغزو واشتهر بالفروسية هو شعب جاف بعاطفته خشن في اخلاقه . غير ان الذي تتبينه عندما تعيش بينه هو العكس تماماً .

فقلما شاهدت اناساً هناك يتشاتمون أو يتشاجرون . أهو النظام ، أم هي القسوة في الاحكام ؟ اني لا اظن ان ذلك هو السبب الوحيد . فالغريزة الطبعية في الانسان لا تستطيع ان تمحوها الانظمة والقوانين في سنوات ، مهما كانت هذه الانظمة قاسية . ولكنها سليقة في الانسان تميل الى الخير أو الى الشر واستبدالها في الجنس البشري هو رهين الاجيال لا السنين .

جلست الى جماعات مختلفة من الروسيين والروسيات في الفندق وفي بهو الاوبرا وفي المستشفيات والمعامل فاذهلني لطفهم ودماثة اخلاقهم ومحبتهم للغريب واحترامهم اياه . كنت مرة في احدى

قاعات الفندق بعد العشاء ، وكان بجانبي الى الطاولة القريبة ضابط وآنستان هما اختاه ، ورفيق له ، واذ شعروا اني غريب اقتربوا مني وبدأوا الحديث بلغة مخلوطة بين الروسية والانكليزية والفرنسية والالمانية ، مغالين في تكريمي وتقديمهم لي الفودكا والخمور ودعوتي الى مراقصة الانستين ، وبقي الحديث بيننا برهة تقرب من الساعتين افترقنا بعدها على موعد لقاء في اليوم التالي . ساعتان تجلى لي في اثنائها مقدار اللطف والوداعة والتهذيب الذي يتحلى بها هذا الشعب .

ذهبت مرة وانا في مدينة لينغراد الى السوق لارى ما استطيع ان اشتريه من التحف التذكارية لزيارتي ، وقد رافقتني سيدة من الفندق لتساعدني على الشراء وتترجم لي من الفرنسية الى الروسية . وعندما خرجنا من المخزن بعد ان طفنا عدة مخازن اضعنا السيارة التي كانت تقلنا من الفندق ، فاضطررنا لركوب الترامواي . وكان من الطبيعي ان نقف على المحطة في الصف ليحين دورنا في الركوب ، وكان الثلج يتساقط بكثرة وكانت درجة البرد ثلاثين تحت الصفر . ونظام الصف لا يتعداه احد هناك . فكان كلما مرّت قاطرة يصعد اليها الواقفون في المقدمة . وطالت المدة ، ولحظ شاب واقف امامنا اني غريب ، فما كان منه الا ان اخذني بيدي ، مخترقاً الصف كله الى ان اوصلني الى المقدمة وهو يقول لزملائه ، وقد كان يفوق عددهم الخمسين ، ان هذا الرجل هو غريب الديار وليس من اللياقة أن يقف منتظراً دوره ، فلم اسمع من احدهم همساً يدل على التذمر .

في اليوم الثاني لوصولي الى موسكو خرجت من فنـــدق « سافوي » الذي كنت نازلا فيه متوجهاً الى المفوضية اللبنانيـة وكنت لابساً معطفي دون ان أرفع على اذنيّ « قبـة » الفرو . فتقدمت مني سيدة تقارب السبعين وبدأت تتكلم معي باللغـــة الروسية . ولما أيقنت اني لا أفهمها واني غريب أمسكت بطرف « قبة » المعطف ورفعتها على اذني وأنفي ، مشيرة اليّ بخطر الزمهرير .

خرجت من الفنـــدق في لينغراد ذات يوم اتمشى في الحديقة العامة فالتقيت بطفل حامل حقيبة كتبه وهو عائد من المدرسة ، فضحكت له وضحك لي ، وما لبثنا ان اخـــذنا نلعب معاً ، هو يركض فالحقه ، ثم اركض فيلحقني ، خمس عشرة دقيقة رجعت في اثنائها الى طور الطفولة البريئة في حديقة لينغراد .

قد يتعذر عليّ تعداد الامثلة التي دلتني على وداعة هذا الشعب ولطفه ومحبته للغريب . ولكن بجانب كل هذا لمست فيه حـــذراً شديداً ممن يأتيه من وراء حدوده ، ولعل حذره ناتج عن شعوره بعداء العالم الخارجي وتحفزه للانقضاض عليه متى وجد فرصة سانحة .

لقد تشوقت لزيارة بعض الذين تعرفت اليهم في بيوتهم . فلم تسنح لي الفرصة لهذه الزيارات . في موسكو سعيت مـع سيدة للتعرف الى امها وهي طبيبة فاستمهلتني ريثما تشفى والدتها من مرضٍ اقعدها في الفراش . ومن سوء حظي ، اني غادرت موسكو ، والمريضة لم تشف بعد . وفي طشقند أظهر لي طبيبٌ رغبته في دعوتي الى الغداء في بيته في اليوم التالي لمقابلتي معه غير انـــه كان مقرراً مغادرتي طشقند مع صباح الغد . وفي باكو دعاني موسيقي شاب

الى جرع كاس من الفودكا في الفندق ، والحّ عليّ بقبول دعوته الى بيته في اليوم التالي ومشاركته « أكلة » « البلاو » غير ان امرأتـــه في الغد اصيبت بانحراف في صحتها ، فكان لا بد من الاعتذار . لقـــد دعيت مراراً الى مؤاكلة بعضهم في مطعم والى مجالسة البعض الى طاولة شراب ، ولكني لم أتوفق مرة في ان ادعى الى بيت بالرغم من استعدادي لاستقبال دعوة كهذه بسرور وبدون ممانعة او مجاملة . ترى هي مشاكسات الظروف ، أم هي تقاليد البلاد ، ام هو الحذر ؟ لا ادري .

ان الشعب السوفياتي حذر جداً ، وقد يكون من حقه ان يحذر تجاه ما يجابهه من الدعايات الاجنبية الرامية الى تسويد صحيفته وتصويره بصورة الهمجيـــة تارة ، وبصورة المفترس طوراً ، وهو ساخط على القائمين بهذه الدعايات ، فلا غرو اذا تذرع بالحيطـــة الواقية أكانت حيطة اختيارية أم كرهية .

والذي لاحظتـــه ، ان حذر الشعب السوفياتي موجـــه بصورة خاصة الى الانكليز والسياسة الانكليزية . فهو سيء الظن بمقاصدها ومطامعها الاستعمارية ، وهو لا يزال يذكر بمرارة لا تخلو من الحقد تلك الحملة العسكرية التي شنها عليه الانكليز سنة ١٩١٨ لقمع الثورة الاشتراكيـــة وما الحقت بهم من التضحيات ، وهم يقدسون ذكرى الستة وعشرين «قوميسيراً» الذين اعدمهم الانكليز . واذا كان الشعب السوفياتي لا يبرر الاميركان ايضاً من سوء النية فهم يحتفظون بالقسط الاوفر للانكليز ولزعيم المحافظين « تشرشل » فقد لا تجد في العالم السوفياتي كله من يوفر هذا الزعيم الانكليزي

من النقد اللاذع والسخرية . واني من قبيل الانصاف « لترومان » اقول ان رئيس الولايات المتحدة هو ايضاً موضوع السخط العام . وفي الاتحاد السوفياتي ، بينما تراهم يلعنون ترومان وسياسته ، فهم يترحمون على روزفلت ، ويتأسفون لانتقال القيادة من ذلك الراحل العظيم الى خلفه ، اذ هم ينسبون لهذا الثاني الهوس والغرور والنزعة لاثارة حرب عالمية ثالثة . ولكني لاحظت ان عندهم من الثقة بمصيرهم ومستقبلهم ما يهيب بهم الى التطلع الى كل هذه الامور بروح الاطمئنان .

الفصل الثاني

« ركنا النظام السوفياتي . المعمل والكولخوز »

المنجل والمطرقة – المعمل بادة قائمة بذاتها – استكانوفيسم – قيمة الروبل – الفلاح الروسي – الكولخوز – ايام السنة ليست ٣٦٥ يوماً – الفلاح الملك .

ان النظام السوفياتي قائم على وفرة الانتاج . والانتاج في العالم السوفياتي موقوف على العامل وعلى الفلاح . ولهذا اخذت الدولة « المنجل والمطرقة » شعاراً لها . وهي تولي الصناعة والزراعة القسم الاكبر من اهتمامها ، كيف لا وهما مصدر وجودها وقوتها. فاذا سمعت مثلا بمشروع الخمس سنوات ، قل لقد زادت قرقعة المطارق والمحركات ، وتبارى المنجل مع المحراث، توصلاً الى الغاية المثلى التي يهدف اليها الاتحاد السوفياتي ، وهي ايصال الانتاج الى درجة تهيء لبسط النظام الشيوعي الكامل على مبدأ « من كل انسان حسب مقدرته ولكل انسان حسب حاجته » اما الان، فهم في مرحلة التحضير لهذا النظام ، مكتفين بالاشتراكية التحضيرية « من كل انسان حسب مقدرته ، ولكل انسان حسب انتاجه »

حتى ولو قصر انتاجه عن الايفاء بكل حاجاته .

ولما كان النظام السوفياتي قائماً على الانتاج ، ولما كانت وفرة الانتاج قائمة على الصناعة والزراعة ، او بكلمة اخرى ، على المعمل والكولخوز فاني اضع امام القارىء صورة عن هذا وتلك، ايضاحاً لهذين العاملين الاساسيين .

*

لقد زرت عدداً من مختلف المعامل ، منها ما هو للنسيج ،ومنها ما هو لصناعة السيارات والكميونات والتراكتورات ، ومنها ما هو للمواد الغذائية ، وبالرغم من الاختلاف في نوعية الانتاج فالانظمة كلها واحدة ، ولهذا ساعطي صورة عن معمل في الاتحاد السوفياتي .

لن اكتب شيئاً عن الالات والانتاج وضخامة العمل والمعامل، فهذه الامور لا تختلف عن مثلها في العالم اجمع ، بل قد يوجد في اميركا مثلاً ما يفوق الموجود في روسيا ، كما اني لاحظت ان كثيراً من الماكنات مستوردة من الخارج ،من الولايات المتحدة ،ومن اسوج ، ومن انكلترا ،ولكن ماتتميز به دنيا المعامل في روسيا هو مايعدونه للعمال على هامش العمل .

اني استطيع القول ان كل معمل هناك هو بلدة قائمة بذاتها . للمرضى مستشفاهم الخاص ، يكبر او يصغر على قدر اتساع المصنع وعدد العمال . ففي مصنع ستالين للسيارات في موسكو مستشفى يشتغل فيه خمسة وسبعون طبيباً ، منهم الاخصائي للحميات والاخصائي لامراض العين والانف ، ومنهم الجراح والمولد ،

وهناك فرع للاشعة والمعالجات الكهربائية والمائية ، ودار للتوليد بحيث ان هذا المستشفى ،او بالاحرى هذه المجموعة ،من المستشفيات لاينقصها شيء من فروع الطب والمعالجة ، والى جانب هذا دار للحضانة وحديقة للاطفال ، وناد للعمال يحتوي على غرف للرياضة وللتسلية وللموسيقى ومكتبة تجمع على رفوفها عشرين الف مجلد اكثرها في اللغة الروسية ولكن فيها مئات من الكتب الفرنسية والانكليزية والالمانية ، ثم الى جانب كل هذا تجد قاعة للسينما ومدرسة للاولاد يؤمونها الى ان ينهوا دراستهم الثانوية الكاملة . فالعامل يجد في هذه « البلدة » جميع ضروريات واسباب لهوه ومطالعاته هو وعائلته . لقد دخلت الى قاعة السينما في معمل للنسيج في طشقند يوم احد ، وكانت الحفلة مخصصة لاولاد العمال فرأيت اكثر من اربعمائة طفل وفتى وفتاة يشاهدون فيلماً يصور لهم الحياة العملية والفنية على عزف الموسيقى . اما الدور والغرف والمماشي ، فهي مزينة بالصور والتماثيل لابطال الثورة والمتفوقين من مشاهير العمال ، ولا تخلو غرفة واحدة من تمثال كبير او صغير او رسم « للنين » و« ستالين » . وفي كل غرفة او زاوية في المعمل ، آلة لاقطة للاذاعة او مكبرٌ للصوت يسمعك من الانغام والالحان اشجاها واحلاها . قرقعة المحرّك والمطرقة للانتاج ، والموسيقى لترويح الاذهان وتخفيف الاتعاب واذكاء الحماس في صدور العمال وتشويقهم للجدّ في العمل وزيادة الانتاج .

اينما ذهبت في الاتحاد السوفياتي ترَ المصانع والمعامل يشتغل فيها آلاف العمال بل ملايينهم ، فلا غرو اذا اهتمت حكومات

الاتحاد بكل ما من شأنه ان يوجد للعامل ولعائلته جميع المساعدات والتسهيلات ، وتعد لاولاده مستقبلاً مضموناً ، فيرتاح العامل الى مصيره ومصير عياله ويضمن للدولة وفرة الانتاج . هذا عدا عن وسائل الترغيب والتشويق التي تبديها الحكومة للتسابق في مضمار العمل . فوزارة العمل تعطي مدير المصنع مشروع الاشغال في بدء كل سنة ، مع تقدير كمية الانتاج المطلوبة من معمله ، فيجمع المدير بدوره مجلس المصنع الاداري المنتخب من مديري الدوائر ، ويدرس المجلس هذا المشروع بحذافيره ، ويقدم ملاحظاته للمدير وهو يقدمها للوزارة ، وهذا المجلس المؤلف من مديري الدوائر ، اما ان يرى تقديرات الوزارة فوق حد الامكان ، وعندئذ تعيد الوزارة النظر في الامر ، او هو يتحدى مشروع الحكومة مظهراً استعداده لانتاج يفوق الكمية المقدرة . فاذا زاد انتاج المعمل عن الكمية المقدرة له ،نال جائزة نقدية من الحكومة ، يحفظ منها خمسة في المائة للتحسينات في المعمل ، ويوزع الباقي ،وهو خمسة وتسعين بالمائة على العمال ، كل حسب استحقاقه وايام عمله . وقليلا ما ترى مصنعاً لا يتحدى مشروع الحكومة ، فكأني بالحكومة تضع تقديراتها قصداً اقلّ من ممكنات المعامل ، تشويقاً للعمال . وقد عرفت من مدير احد المعامل ان معمله في سنة ١٩٤٦ نال جائزة سباق بلغت قيمتها مليوني روبل فكان معدل ما ناله العامل الفي روبل ، عدا اجرته العادية .

اما الاجور في المعامل ، فهي تتراوح بين القليل والوسط والكثير ، وبتوقف تنويعها على أهمية المصنع ونوعية الانتاج .

فالعامل البسيط يتقاضى من ٦٠٠ الى ٨٠٠ روبل في الشهر ، والوسط يتقاضى ضعفي هذا المبلغ ، ومن العمال من يتقاضى الفين أو ثلاثة آلاف روبل . وكلما زاد انتاج العامل خمسين بالمئة زاد معاشه مائة في المائة ، وهو ما يطلق عليه لقب « ستكانوفيست » نسبة لمن ابتكر هذه الطريقة الانتاجية . وقد سألت عاملا بسيطاً عن معاشه فاجابني انه يبلغ احياناً ثلاثة آلاف وخمسمائة روبل لأنه يشتغل اكثر من الساعات القانونية وبذلك يفوق انتاجه الكمية المحددة له . وعندما سألت هذا العامل ، وهو فتى جذاب ، وماذا تعمل بكل هذه القيمة ؟ قال : اشتري بها هدايا للبنات ، ثم عاد مقهقهاً الى عمله . وهنا لا بد ان تسألني ، ايها القارىء ، عن قيمة الروبل فالجواب يقضي ببعض الايضاح :

لا قيمة للروبل الا القيمة الشرائية . فالروبل متى كان بيد العامل له قيمة شرائية اكثر من الروبل بيد من لا يعمل . فالروبلات التي تزيد كميتها بيد العامل عن مشترياته المقننة والتي يشتريها رخيصة ، تقلّ قيمتها الشرائية الى النصف او الربع او السدس . وذلك يعني ان ما زاد في جيب الانسان على ثمن مشترياته المقننة ، من مأكل وملبس ، والتي لا تتعدى الاربعمائة الى الخمسمائة روبل في الشهر ، تقل قيمتها الشرائية الى حدّ ليس ادل عليه مع العلم بان زوج الكلسات « نايلون » في الاسواق الحرة ثمنه خمسمائة روبل ، وحذاء السيدة ثمنه الفا روبل ، وبزة الجوخ ثمنها من خمسة الاف الى ستة الاف روبل ، والبرتقالة الواحدة التي ليس فيها من البرتقال اكثر من هيئة وشيء من الطعمة ، ثمنها عشرة روبلات ،

والوجبة الواحدة في مطعم لا يقل ثمنها عن مائة وخمسين روبلا ، وذلك لأن الروبل في السوق الحرة يأخذ قيمته الرسمية ، وهي خمسة روبلات للدولار الاميركي ، وواحد وعشرون روبلا لليرة الاسترلينية . ومن هذا ترى انه مهما بلغ معاش الفرد فالزيادة التي تبقى معه بعد مشترياته الضرورية المقننة لا تشتري له شيئاً ذا قيمة اذا كان هذا الشيء من الكماليات وبقصد الترف والظهور . وقد أرجع الى التوضيح عن اسعار الكماليات عندما أصل بك الى فصل « التجارة في المخنق » .

هذه هي دنيا العمل في بلاد شعارها المقدس المنجل والمطرقة .

*

« الكولخوز » عبارة عن قطاع كبير من الاراضي التي صودرت من اقطاعي ذلك الزمان ، تستثمر لمصلحة الدولة ويعمل فيها عددٌ من الفلاحين يشكلون عائلة تعاونية زراعية .

زرت احد هذه الكولخوزات في جمهورية اوزبكستان وبعد عن طشقند العاصمة مسافة خمسين كيلومتراً .

واحة في صحراء . مساحتها الف ومائتا هكتار وهي تعد وسطاً بين الكولخوزات . بيوتها من « اللبن » مسقوفة بالخشب والقش . كل بيت تسكنه عائلة هو ملك لها ، وهو محاطٌ ببقعة من الارض مساحتها الفان وخمسمائة متر مربع ، لصاحب البيت الحرية المطلقة في زرعها واستثمارها ، ولا تدخل في الاستثمار التعاوني . عدد بيوت هذا الكولخوز حوالي المائتين . وعدد العاملين فيه ثلاثمائة وخمسة وعشرون عاملا أو فلاحاً .

اما المساحات العامة فتستثمر من قبل الادارة القائمة على الكولخوز وهي مؤلفة من سبعة اعضاء ينتخبون سنوياً من فلاحي الكولخوز .

يعطى العامل يوميا ثلاثين روبلاً. وفي آخر السنة يجمع المحصول ويباع ، بالطبع للحكومة ، فما زاد على اجور العمال ومصاريف الكولخوز ، ان على المستشفى ، أو المدرسة ، أو دار الحضانة ، أو غير ذلك من المصارفات العامة ، يوزع على العمال طبقاً لعدد ايام عملهم . هذا فضلاً عن بعض مواد غذائية ياخذها عيناً ومجاناً .

سألت رئيس الكولخوز عن ميزانية ١٩٤٦ فاتاني بالدفتر والارقام . العامل الذي ينتج خمسين بالمائة زيادة على المقرر يحسب يومه يومين ومن نقص انتاجه ينقص عدد ايامه . تطلعت في ميزانية ١٩٤٦ فاذا بي اجد ان العامل الاكثر اجتهاداً بلغ عدد ايام سنته سبعمائة يوم ، والعامل الاكثر كسلاً بلغ عدد ايام عمله مائتي يوم ، فكان المعدل الوسط اربعمائة يوم . وعلى هذا القياس توزع القيمة التي تزيد عن الاجور المقننة. وفي هذا الكولخوز بلغ مدخول ١٩٤٦ تسعة ملايين روبل ، اخذت منها الحكومة ضريبة ٢٪ وحفظ منها خمسة عشر في المائة مالا احتياطياً ثم جرى توزيع اجور العمال وفقاً لعدد ايام عملهم . وما تبقى بعد المصارفات العامة وزعت على المجموع على ان لكل عامل ان يطلب اجازة ايام غير مأجورة حتى التسعين يوماً في السنة يشتغل فيها بارضه الخاصة واستثمارها لنفسه ولا تتدخل بامرها الادارة .

هذا من جهة العمل والاجور . اما المؤسسات الموجودة في

الكولخوز ، مثلها في كل كولخوز، فهي منقولة تماماً عن النظام العام. مستشفى للتوليد مهما صغرت المزرعة . ومستوصف يعمل بـــه طبيب ومعاون ، ودار سينما ، ومكتبة فيها الف وسبعمائة مجلد ، ومحطة اذاعة لاقطة توزعت منها مكبرات الصوت الى كل بيت على الاطلاق ، ويوجد خياط وحلاق ومخزن للبضائع يشتريهـــا العامل بالاسعار الحرّة .

استقبلنا رئيس الكولخوز وهو فلاح وعضو في مجلس السوفيات الاعلى . ومن العادات اللطيفة انه عندما كنا نطوف اجزاء هـذه المزرعة ، كان يمشي امامنا احد الفلاحين يغني بصوته الرخيم . عادة اوزبيكية في اكرام الضيوف .

اما المأدبة التي اقامها لنا الرئيس ، فكانت غاية في الكرم . جلسنا في بيته على الارض المكسوة بالطراريح ، الى مأدبة اعجبت من سخائها ، ولم يرض صاحب البيت واولاده وامرأته وبناته الا ان يبقوا واقفين على خدمتنا . تقاليد شرقية محضة ستبقى ذكرى خالدة في نفسي . وعندما ودعناهم وزع علينا الهدايا من فاكهة المزرعة وأهدانا « عرقية » ملونة بالالوان الزاهية كالتي يلبسها الفلاحون وهي من منسوجاتهم .

لقد اعطاني هذا الكولخوز صورة عن عالم الفلاح في الاتحـــاد السوفياتي وعن الوسط الذي يعيش فيه اولئك الذين كانوا لربع قرن مضى عبيداً لاسيادهم الاقطاعيين ينامون بالحيم ويعيشون جائعين والسوط يلعب باجسادهم وهم يكدحون .

قد يقول قائل ان ما رأيتموه في هذا الكولخوز كان مهيئاً

بمناسبة زيارتكم . ولكن هب ان في القول شيئاً من الصحة فاذ حسمت النصف من حسناته ، اكراماً للشاكين ، فان النصف الباقي كافٍ للقول ان مزرعة الفلاح السوفياتي هي بركة من بركات نظام العمل الذي لم ينعم بجزء منه في الماضي يحسده عليها فلاحو الدنيا قاطبة .

الفصل الثالث

التجارة في المخنق

مقبرة الرأسمالية ـ لا تجارة خاصة ـ السوق المقننة والسوق الحرة ـ لا سوق سوداء ـ الملكية الخاصة ـ الارث .

بعد هذه الرحلة التي قمت بها الى الاتحاد السوفياتي، ادركت تمام الادراك ان الحرب التي تشنها الاوساط الرأسمالية ليست من قبيل الاعتباط . فالنظام السوفياتي هو مقبرة الرأسمالية .

لا تجارة في الاتحاد السوفياتي الا ما تشرف عليها وتقوم بها الحكومات نفسها . ليس لأحد حق بمعاطاتها لمصلحته الخاصة . لا شركة ممتازة ولا غير ممتازة . لا حق لأحد بالاستيراد ولا بالتصدير . الدولة وحدها هي المصدّر والمستورد اذا كان هناك مجال لهذا أو ذاك .

اما التجارة هناك فعلى نوعين : المحلات التعاونية وهي التي تبيع المواد المقننة من الغذاء والكساء يشتريها الفرد باسعار رخيصة مقابل قسائم دفتر الاعاشة الشهري . وهذه المحـــلات ذات فئات مختلفة تبعاً للمعاش الذي يتقاضاه الفرد ، بحيث ان صاحب المعاش

الكبير لا يستطيع مزاحمة صاحب المعاش الصغير . اما الاسعار فهي موضوعة بشكل تمكن كل فرد من ابتياع حاجياته الضرورية والمقننة والمدروسة درساً علمياً على الوحدات الغذائية ، ليبقى لهذا الفرد من معاشه ما يمكنه من شراء ما يعتبر من الكماليات ، أو ما يمكنه من الذهاب الى المسارح والسينما والمراقص ، او اذا شاء أن يوفر الباقي من معاشه فيضعه في صندوق التوفير الذي هو بنك الدولة ، فيعطيه هذا فائدة سنوية عن توفيراته ثلاثة في المائة .

والى جانب المحلات التعاونية التي تسمى هناك Gastronome توجد المحلات الحرة ، وهي ايضاً ملك الدولة ، تعرض فيها البضائع والتحف والمفروشات باسعار لا ابالغ اذا قلت انها فاحشة جداً . كل من يعمل في هذه المحلات هو موظف يقبض معاشه الشهري ، ولا شأن له في الارباح . الحكومة تسعر وصندوقها يقبض ، فهي الرابحة وهي الخاسرة في حالتي الربح والخسارة .

قد تسألني ومن هم زبائن هذه المحلات الحرّة ؟ فاقول : هم اصحاب المعاشات الكبيرة من عمال « ستكانوفيست » ومهندسين ، واساتذة الطب والعلوم والاكاديميين ، والضباط ، والفنانين . فمنهم من يقبض معاشاً يبلغ خمسة إلى عشرة آلاف روبل في الشهر . والدولة تهيء لهم ابواب صرف هذه المعاشات . ولا تظن ان هؤلاء يستطيعون ان يعيشوا عيشة الترف و « البهورة » اذ ان معاشاتهم مهما ارتفعت فبضائع السوق الحرّة كفيلة بالتهامها . فصاحب اكبر معاش بعد ان يدفع اثمان مقنّناته الغذائية والكسائية لا يبقى معه في آخر السنة ما يمكنه من ابتياع سلع

الترف . قد يشتري من السوق الحرة بزة وحذاء ومقعداً مزخرفاً لبيته وزجاجة او زجاجتين كولونيا وكمية من الكافيار والفودكا وبعض اواني بيتية ، فتطير القيمة الموفرة من معاشه . ومن المناسب ان اذكر هنا انه قلما تجد من يطمع بتوفير الاموال الى الغد الاسود لأن الغد مضمون لكل انسان . لا بطالة مطلقاً ، ولا تفكير في مصارفات المرض او التعليم او العجز . الطبابة مجانية ، والتعليم مجاني ، والعاجز تعيله الدولة ، لا احساناً بل هو حق من حقوقه لا يستطيع احد ان يحرمه اياه . وكل فرد في الدولة له معاشه التقاعدي عندما يبلغ سن الخامسة والخمسين وبعد خدمة خمس وعشرين سنة .

لا أعرف احداً في الاتحاد السوفياتي يشتغل لحسابه الخاص الا فئة الكتاب المؤلفين ومؤلفي مسرحيات الاوبرا وروايات التمثيل . هؤلاء هم الاغنياء نسبياً كما ذكرت عندما كنت أتحدث عن الحياة الفنية .

لم اسمع ان هناك متاجرة بالذهب او بالنقد . وان وجد احد طمع بذلك ، فالويل له اذا اكتشف امره . النقد الانكليزي والاميركي قيمته الرسمية في البنك ، واحد وعشرون روبلاً للبرة وخمسة روبلات للدولار ، أما إذا كان بيد الديبلوماسيين فالقيمة ترتفع في البنك نفسه إلى ثمانية واربعين روبلاً للبرة واثني عشر روبلاً للدولار ، اما لو قدر لاحد ان يتاجر بالنقد في السوق السوداء ، فهذه القيمة تتضاعف ، ولكن السوق السوداء أندر من الكبريت الاحمر ، هذا اذا وجدت لان جزاءها قاسٍ

جداً ، لا رحمة ولا هوادة .

ومما يستلفت النظر ان اكبر قطعة نقدية هناك هي المائة روبل . عشرون منها تضخم جيبك اذا حملتها ، ومائة منها تحتاج الى صندوق، والالف تحتاج الى خزانة . اذن فما عليك الا ان تصرفها على مشتريات من السوق الحرّة ، او ان تستودعها بنك التوفير ، حتى اذا وفرت كمية تساعدك على بناء بيت سكن ، جاز لك ذلك، واذا اردت ان تشتري سيارة لك الحق الكامل بشتراها ، وهنا اصل الى موضوع الملكية الخاصة فاسمع :

اذا بنيت بيتاً فلك ملء الحق ان تجعل منه قصراً ، بشرط ان يكون هذا البيت لسكنك دون ان تؤجر جزءاً منه لاحد، واذا انتهى اجلك من الحياة اورثته الى بنيك بموجب القانون المدني امسيحياً كنت ام مسلماً ام ملحداً . لا اعتبار لشريعة « للذكر مثل حظ الانثيين » اما الارث الذي ينتقل الى الوارث أو الوارثين ، فهو بيت السكن والاموال النقدية والاشياء المنقولة كالسيارة والمفروشات . انت لا تقدر ان تبني بيتاً أو وكالة للايجار، ولا ان تشتري مزرعة بقصد الاستثمار . كل ما تستطيع امتلاكه هو البيت والفي متر ارض معه . هذا اذا خولك معاشك وتوفيراتك لهذه النعمة ، وقلائل جداً هم الذين يتمكنون من ذلك لاسيما في المدن . اما في القرى والكولخوزات، فالامر اهون كثيراً ، وذلك لاتساع الاراضي والمساحات ، ولان تكاليف بيت الريف اقل كثيراً من تكاليف بيت المدينة .

إن استثمار الانسان للانسان محرّم في النظام السوفياتي . فلا

شركة مغفلة ولا غير مغفلة ، ولا التزامات ولا احتكارات ، الدولة هي التاجر وهي المستورد وهي المصدّر .

لقد طفت كثيراً في المحلات التجارية الحرّة ، وتناولت مراراً الطعام في مطاعم حرّة ، تارة داعياً وتارة مدعوّاً ، فادهشني الغلاء المستحكم في هذه المحلات فلم اعجب بعد ذلك لتسرب الاموال الموفرة عند الناس للخزينة العامة . ان الحكومة لا تحرمك من الضروريات ، فانت تشتريها باسعار بخسة ، ولكن عندما تطمع بالكماليات فعليك ان تدفع ثمنها غالياً وغالياً جداً لتستطيع الدولة ان تؤمن جميع المنافع العامة لكل الناس . اما الكماليات المعروضة في المخازن الحرّة فليس فيها شيء مستورد من الخارج . كلها من مصنوعات ومنتوجات بلادهم . انهم يريدون الاستغناء عن العالم الخارجي وهذا ما اظنه سبباً من اسباب قوتهم وسبباً من اسباب عداء الرأسمالية العالمية لهم . ولذلك لا يجد الاجنبي دافعاً له للذهاب الى روسيا ، اذ ان ارتياد الاجانب لبلدٍ انما هو بالاكثر وليد المتاجرة مع ذلك البلد .

اذا قلت ان العالم السوفياتي عالم منعزل على نفسه قد يكون في قولك شيء من الحقيقة أو اكثر الحقيقة . عالمٌ جديد حكم على الرأسمالية الفردية بالموت وحطّم معالمها ، وانكر عليها حقها في ان تكون مقياساً للحياة مؤمناً انه يماشي الاكثرية من خلق الله ، بينما العالم القديم يماشي الاقلية الضئيلة الحاكمة . هو صراع قاسٍ ولكنه صامت ، يا ويل المغلوب اذا خرج الصراع عن صمته الى ساحات القتال الدامي . ان العالم السوفياتي مؤمن بالمستقبل ، وهو يثق ان

التفاعل الطبيعي والتطور الانساني لن يكون إلا في مصلحته ،ولهذا هو يقف بالمرصاد لعداء العالم الخارجي له . واني على قدر مفهوميتي وادراكي ، وبعد ان خبرت ودرست ، اوقن ان هذا العالم الجديد لن يكون البادىء في عدوان او عراك عملي مهما جابه من الصعوبات والاستفزازات ، اذ انه مؤمن بطبيعة التطور . واعظم شاهد على ذلك انسحابه الاخير في المعركة الاذربيجانية الايرانية بالرغم مما اصابه فيها من انخذال . هو واثق من دفاعه عن نفسه اذا ما جنّ جنون معتدٍ أو مهاجم . فهل يخوض العالم حرباً ثالثة ؟ ان هذا بيد القدر اذا لعب بالقدر ذوو الاطماع والاحقاد .

الفصل الرابع

حرّم عليك الجهل

لا أميّة في العالم السوفياتي – المنهاج التعليمي واحد للجنسين ولكن التعليم المختلط الغي – التعليم بالمشاهدات – تعليم اللغات الاجنبية – من عرف لغة قوم امن شرهم – دخلت الصفوف – التعليم العالي – ارستوقراطية العلم – الدرس الذي تلقيته من حفلة .

في رأس المحرّمات في العالم السوفياتي ، الجهل والاميّة . فليس الفرد حرّاً في أن يتعلم أو لا يتعلم . فالتعليم اجباري ، والمدارس مجانية ، أو بالاحرى شبه مجانية . يدفع الأب أو الأم اثنين بالمائة من معاشه ، الا اذا كانت معيشته الضرورية من غذاء وكساء وسكن تستنفد كل معاشه ، فعندئذ تتحمل الدولة المصاريف كلها .

وجبرية التعليم تبقى الى آخر الدراسة الثانوية . يبدأون بدار الحضانة من الشهر الثالث من الولادة الى السنة الثالثة ، ثم حديقة الاطفال من السنة الثالثة الى السنة السابعة ، ثم بالمنهاج التدريسي من السابعة الى السابعة عشرة . المرحلتان الاوليتان ليستا فرضاً

واجباً اذا لم يرغب بهما الأبوان ، ولكن لا اعتقد ان ابوين يبلغ بهما البله والعته الى حرمان اولادهما من هذه النعمة التي سأتكلم عنها في فصل على حدة . أما المرحلة الثالثة فامر مفروض . فالعمل محرّم على من كان دون السابعة عشرة .

وبرنامج التعليم واحد للذكور والاناث ، ماعدا بعض خصوصيات تتعلق بالابنة كالخياطة وتدبير المنزل وغيرهما ، وهذه يبدأون بها من الصف الخامس أي عندما يصبح عمر الأبنة اثنتي عشرة سنة . أما الدروس العلميـــة والرياضة والموسيقى وما أشبه فكلها واحـدة للجنسين .

وقبل عام ١٩٤٤ كان التعليم مختلطاً بين الذكور والاناث ثم تغيرت الحال ففرقت مدارس الصبيان عن مدارس البنات ابتـــداء من الصف الخامس ، وذلك بناء على اختبارات واحصاءات قامت بها وزارة المعارف رأت في نتيجتها ان نسبة النجاح في المعاهد المختلطة أقل منه في المدارس المفرّقة .

والموسيقى لها أهميـة كبرى في المدارس ، واستاذ أو استاذة الموسيقى لها مقام مرموق بين المعلمين ، والذي يلفت النظر التعليم بالمشاهدات . فاذا دخلت الى صف الطبيعيات مثلاً وجدت جهازات تفسر لك نظرية الثقل النوعي تحت صورة « نيوتن » ، واذا دخلت صف الفلك وجدتها مليئة بصور النجوم والسيارات وكيفيـــة دورانها ، وفي صف علم النبات تجد رسماً كبيراً لداروين يحتل صدر القاعة ونماذج مختلفـة للعائلات النباتية وهلمجرّا . في الكتاب تدرس النظريات وفي المشاهدات تفهم ما درست .

وتعليم لغة من اللغات الاجنبية الثلاث ، الانكليزية او الالمانية او الفرنسية ، اجباري، من ساعتين الى ست ساعات في الاسبوع. وعندما سألت اية لغة هي المرغوبة اكثر من غيرها تبين لي ان الافضلية في الوقت الحاضر هي للانكليزية . اما تفضيل الانكليزية اليوم فاني أظنه بنظرهم من قبيل «من عرف لغة قومٍ امن شرهم».

حضرت صفاً في اللغة الانكليزية فاذا بالطالبات يقرأنها بسهولة ملموسة وبلكنة روسية . قد يتخرج التلميذ دون ان يحسن التكلم، ولكنه يجيد القراءة الى حدٍ ما ، وقد سمعت من الصف الانكليزي أغنية انكليزية بأصوات روسية رخيمة جداً . دخلت عدة صفوف منها للحساب والجغرافيا والتصوير مما جعلني أشهد بانكباب الطلاب والطالبات على التعلم بروح حماسية جداً . اما صف الرياضة فيبهج النظر . العاب بهلوانية . ورقصات فنية مرفقة بانغام الموسيقى والغناء .

وقد لفت نظري الدقة في النظام كأنهم يريدون ان يربوا الطالب منذ صغره عليه . وفي أكثر الصفوف تجد اللباس مهما كان مختلفاً قد لا يخلو طالب أو طالبة من ياقة حمراء على عنقه شعار النظام الشيوعي .

قد تجد في الشعب السوفياتي بعض الشيوخ الاميين ، ولكنك لن تجد فتى امياً أو فتاة امية ولا شاباً ولا شابة حتى ولو حملت في يدك فانوس « ديوجينس » .

اما التعليم العالي فهو في متناول كل طالب تظهر عليه دلائل الكفاءة ، وذلك بالطبع بواسطة المسابقات . وعندما يدخل الطالب

الى معاهد الطب أو معاهد الهندسة أو الفلسفة أو خلاف ذلك يبدأ بأخذ معاش يسمى معاش التلمذة . ثلاثمائه روبل لطالب الطب ، واربعمائة لطالب الهندسة (فليفرح المهندسون) هـذا عدا عن المكافآت التي يتناولها الطالب اذا كان من المتفوقين . سألت فتاة تدرس الطب عن معاشها ، فقالت لي انها تقبض ثلاثمائة روبل ، ولكن شهر شباط اتاها بالف روبل مقابل ما انتزعته من جوائز في جميع الفروع .

لقد بوّبت هـذا الفصل باربع كلمات « حرّم عليك الجهل والاميّة » لان النظام السوفياتي قائم على العلم . وفي هـذا العالم مكانة خاصة للعلماء والادباء والبحاثين ، واذا جاز لي الاعتراف بطبقة ارستوقراطية هناك ، فهذه الطبقة هي فئة اهل العـلم والادب والفن والثقافة .

وقد تكون من ذوي الثراء في روسيا ، على قدر ما تجد مجالا للثراء ، فلا ترمق بعين التعظيم والتكريم ، ولكن كن اديباً ، أو عالماً ، أو مؤلفاً ، أو فناناً ، فتصبح قبلة الانظار والاكرام . وليسمح لي قرائي بان انوه بظاهرة تدل على القيم والمقاييس في هذا العالم الجديد ، اذا جاء فيها شيء من دلائل التكريم للوفد الذي زار الاتحاد السوفياتي ، فانما القصد من الايضاح هو اظهار ما اريد ان يعرفه القارىء عن الميزان الذي يزنون به هناك قيم الانسان .

شاءت مؤسسة « فوكس » ان تكرم بعثة لبنـان وسوريا فاقامت على شرفها مأدبة وحفلة راقصة في ناديها الفخم ، دعت اليها عدداً من اهل العـلم والفن وخمسة فقط من وزراء الدولة ورجال

المفوضيتين اللبنانية والسورية . ودعني اقول بهذه المناسبة اني لم اتمالك من الاعتزاز عندما جلس المدعوون في مستهل الحفلة ليستمعوا الى برنامج موسيقي وغنائي ، فرأيت وزيرنا المفوض يتصدر الحفلة والى يمينه الرفيق « ملك » نائب مولوتوف والى يساره شخصية جذابة ، هي شخصية الرفيق كيمينوف ، رئيس « فوكس » ومن حولهم اعضاء البعثة اللبنانية السورية . فكانت المأدبة من أغنى المآدب واكثرها كرماً ، اذ فهمت انه قلما تقام هناك مآدب كما تقام في بلدان أخرى لرجال السياسة والوجاهة . وعندما دارت حلبة الرقص ، واشتركت فيها لاول مرة بعد ان هجرت الرقص منذ خمس وعشرين سنة ، تعرفت الى الحاضرين فرداً فرداً ، وقد كان عددهم يزيد عن المائتين ، واذ بسبعين منهم يحملون وسام ستالين الذي لا يعطى إلا للمتفوقين ، لا مجاملة ، ولا محسوبية ، ولا ارضاء ، ولا استرضاء . ان وسام ستالين لا يعلق إلا على صدر من يستحقه بعد ان تقرر منحه اياه اللجان الرسمية والاكاديميات المختصة .

هذا « ايليا اهرنبورغ » بنظره الحادّ وبوهيميته الجذابة يتوسط اعضاء البعثة فيحدثهم عن روسيا في زمن الحرب وعن ذكرياته في رحلته الى الولايات المتحدة ، اويلقي النكات فيطرب لها المستمعون ، وتعلو القهقهة فيجتذب المدعوين إلى حلقته .

وهذا الاستاذ « لوتسكي » استاذ التاريخ والعلوم الشرقية يتحدث بهدوء وسكينة شأن كل العلماء ، لا تبجح ولا تفاخر ، يتجادل مع خليل تقي الدين عن محاضرة القاها « لوتسكي » عن

لبنان وسوريا ، فينتهي الجدل الهادىء الى الاتفاق بارسال المحاضرة بحرفيتها إلى وزيرنا في موسكو ليرى رأيه فيها . ولقد اخجل « لوتسكي » تواضعي عندما سألني عن كتابي من « الاحتلال إلى الاستقلال » الذي كان قد عرف به قبلًا ، فسرّ عندما قلت له انني حملت منه نسخة إلى مؤسسة فوكس قائلًا انه سيقرأه (وهو يجيد القراءة العربية) لانه اخصائي في كل ما يتعلق بلبنان وسوريا والشرق العربي .

قلت ان سبعين من الحاضرين كانوا من حملة وسام ستالين ، غير اني كنت أفتش عن اصحاب الوجاهة والزعامة والعائلات فلم أجدهم . لا قيمة لهؤلاء هناك. فلتتنعم هذه الفئة بحظوظيتها في العوالم الاخرى . ان المائتي مدعو كلهم من أهل العلم والادب والفن ، واذا اكتفيت بتعداد اسماء « ايليا اهرنبورغ » و« لوتسكي » والموسيقي « خشادوريان » والمغنية « ينتسكايا » والعازفين الساحرين « كارلينا بارينوفا » و« جاك زاك » والمؤرخ « تارليه » والمصور « جراسيموف » والكاتب « مارشاك » والسينمائية « سميرنوفا » والوزيرة الجنرال (والجنرالة) « تروتسكايا » وزيرة مواصلات المترو ووكيلة وزارة الفنون الجميلة ، فلأني لا أريد أن أملأ هذه الصفحة بالاسماء .

وما دمنا في حديث الرقص فدعني اخبرك ان الراقصين لم يتقيدوا كلهم « بالسموكن » مع أن الراقصات كان اكثرهن يلبسن فساطين السهرة ، ولو لم تكن كلها خارجة من تحت يد الخياطين . فما ضرّ الالبسة ان لا تكون مهفهفة ومزدانة بالحرائر

والاطالس البرّاقة والجواهر الثمينة ، إذ ليست العبرة بالمظاهر بل العبرة بالمواهب والادمغة ، حبذا لو يعتبر من ينقصهم تفهم القيم التي تجعل من الانسان انساناً بالمعنى الحقيقي .

لا تتهمني بالشطط عن الموضوع ايها القارىء ، فما قصدت من كلامي عن هذه الحفلة الا ان اصور لك كيف ينظرون إلى القيم الفكرية في العالم السوفياتي .

الفصل الخامس

الطب في الاتحاد السوفياتي

لا استثمار في الطبابة – الاطباء كلهم مجانيون – اجور الاطباء والتدريس الطبي – الجهاز الصحي – العاطفة لا تتدخل في الطبابة – الام هي المنتج الاول في الدولة – التفوق العلمي – الحرب ضد السرطان – المستشفيات .

الطب في الاتحاد السوفياتي مثله في كل البلدان . فالطب علم لا يتأثر بالانظمة ، أكانت هذه شيوعية ام فاشستية ام ديموقراطية على اختلاف اجناسها والوانها . غير ان الطب شيء والطبابة شيء آخر . فالطبابة هي ممارسة الطب والاستعانة بعلمه الانساني الواسع على تخفيف آلام الاجساد ووقاية الناس افراداً وجماعات من الامراض . واذا كان الطب واحداً في روسيا واميركا وانكلترا وفرنسا ولبنان وجميع بلدان الدنيا ، فالطبابة تختلف تبعاً للانظمة القائمة في هذا البلد او ذاك . ولذلك ترى الطبابة في الاتحاد السوفياتي اخذت شكلاً جديداً استمدته من النظام الاشتراكي السوفياتي الذي امّم كل المصالح والمنافع العامة والمهن معتبراً ان

الصحة حق من حقوق الفرد والمجتمع ، اكان هذا غنيا ام فقيراً ، كبيراً ام صغيراً ، لا يجوز ان ينازعه فيه او يساومه عليه احد .

لا تجارة ولا استثمار بالطبابة في الاتحاد السوفياتي . فالاطباء كلهم موظفون في الدولة ، يتقاضون اجوراً شهرية كل حسب كفاءته واهمية عمله ومكانته العلمية والطبية والنفع العام الذي ينتج من عمله . فالطبيب في حي او في قرية او في « كولخوز » يتقاضى معاشاً اقل كثيراً مما يتقاضاه طبيب مستشفى او استاذ طب . ولكن امام كل طبيب مجال للتقدم ، ومن كان ذا موهبة واجتهاد وطموح يستطيع ان يغتنم الفرص التي تفسحها له الحكومة للتدرج في فنه حتى اذا ظهر منه استعداد للتقدم والنبوغ ارتقى الى الدرجة التي يهيئها له اجتهاده . فلكل طبيب الحق بان يزيد معارفه الطبية وذلك بانخراطه في معاهد التخصص باي فرع من فروع الطب ، فتجيز له الحكومة ذلك مع الابقاء على معاشه الذي كان يتقاضاه اثناء الطبابة .

وعلم الطب مثل كل العلوم العالية لا يكلف طالبه شيئاً غير اجتهاده . فالتلميذ متى انهى دراسته الثانوية ، وهي بالطبع مجانية ، له ان يختار اما الدخول في العمل او في اختيار متابعة الدروس العالية كالطب والهندسة ، او الفلسفة ، او الفنون الجميلة ، الى آخر ما هنالك . فاذا اختار دراسة الطب ونجح في امتحان الدخول مشى الى الصف الاول وابتدأ يتقاضى معاش التلمذة كما اوضحت عندما كنت أتكلم عن التعليم .

وهكذا يواصل التلميذ دروسه الى ان يتلقى الشهادة الا اذا

ظهر منه تقصير لا يؤهله لاكمال دروسه . وعندما يحصل على الشهادة تعينه الحكومة في احد مراكز الطبابة بمرتب شهري يبدأ على ما فهمت بالف روبل. وانه لجدير بالذكر ان الاطباء هناك اكثرهم من النساء . وقد تفوق من الطبيبات من تسلمن اعلى المراكز في المستشفيات الكبرى والجامعات . ومما لا شك فيه ان في المرأة مؤهلات محسوسة لفن الطبابة اكثر من الرجل ، وقد اعطت برهاناً واقعياً على ذلك في العالم السوفياتي .

اما الجهاز الطبي والصحي هناك فاليك صورة عنه :

في كل حي ، وفي كل قرية او مزرعة ، وفي كل مصنع كبير ، وفي كل معهد كبير ، يوجد مركز صحّي « بوليكلينيك » يعمل فيه اطباء ، يكثر عددهم او يقل بالنسبة لاهمية المصنع او لعدد سكان الحي . فمن شعر بحاجة الى مراجعة طبية تقدم الى هذا المركز فيفحصه الطبيب المختص ، فاما ان يعالجه او يحوله الى جاره في غرفة ثانية اكثر معرفة بمرضه منه مستعيناً بالفحوص الكيمائية والمجهرية الموجودة دائماً في المركز . واذا وجد ان المريض بحاجة الى دخول مستشفى ارسل رأساً ليلقى هناك العناية الكاملة الى ان يشفى . على ان هناك ظاهرة فريدة لفتت نظري وهي ان المريض في المستشفى لا يسمح بزيارته من احد حتى من اهله الا في حوادث استثنائية خاصة تتعلق بمرضه .

اخبرتني مواطنتنا السيدة اميوني ان ابنتها البالغة من العمر اربع سنوات اصيبت بنزلة مع التهاب اللوزتين وحرارة مرتفعة ، فأشارت الطبيبة الزائرة بارسالها الى المستشفى ولم يكن قد مضى على

وصولها الى موسكو اكثر من شهرين ، وشدّ ما كانت دهشتها عندما ذهبت الى زيارتها فمنعت من دخول غرفة الابنة المريضة . ولما احتالت الام لتشاهد ابنتها من الشباك ، واجهتها الممرضة بغضب لم يخفف من حدته الا معرفه الممرضة ان السيدة اجنبية ، فاعتذرت لها مبينة اسباب هذا التدبير المتخذ . ولا يعني ذلك انهم قساة لا يقدرون عاطفة الابوين ، ولكنهم يعتقدون ، وهم بنظري على حق ، ان العاطفة يجب ان لا تقف حائلا بوجه التداوي ، فزيارة المريض ، ولا سيما اذا كان طفلا ، قد تثير في المريض وفي الأهل من اللواعج ما هو في غير مصلحة المريض . فاذا كان القصد من الزيارة هو الاطمئنان عن حالة المريض . ففي مكتب المستشفى من يتولى التوضيح عن كل ذلك ، وعلى مدخل الجناح الموجود فيه المريض نشرة طبية عن حالته ، فلماذا يسمحون إذن بهذه الزيارات العاطفية او زيارات المجاملة ؟

ولكن المريض هناك يلقى من العناية ما يفوق كل وصف . اخبرتني السيدة اميوني انها عندما شاهدت ابنتها من الشباك رأتها فرحة تلعب مع بقية الاطفال اذ كانت حالتها اخذت بالتحسن ، وهي تقول ان الابنة لاقت من ضروب العناية والحنان ما لا يمكن ان تلقاه في أي مستشفى في أي بلد آخر . لقد اعجبني جداً هذا التدبير ، فقلت بنفسي ليت الناس عندنا يتعظون به فيتنازلون عن عاطفتهم أو مجاملتهم ليفسحوا لمرضاهم مجال الشفاء بصورة أسرع وأضمن . ولكن هل يأخذ العالم القديم بمفاهيم العالم الجديد ؟

قلت ان طالب المعاينة يذهب الى « بوليكلينيك » الحي .

ولكن من كانت حالته لا تسمح له بالذهاب الى العيادة فالتلفون في خدمته ، والتلفون موجود في كل مكان . كلمة واحدة لا يمرّ عليها ساعـــة ، وفي حالة الاضطرار لا يمرّ خمس دقائق حتى يصل الطبيب الى بيتـــه ، فاما ان يعالج المريض في البيت اذا كانت الاصابة عارضة وقتية او ينقـــل الى المستشفى . على ان في الامر شيئاً تساءلت عنه ولم يتفق وطريقة تفهمي للطبابة ، وهو ان الطبيب يزور المريض اليوم ويسجل كل مشاهداته وتشخيصه والعلاج الذي يرتأيه ، ثم يرسل هذا العلاج فوراً ، فاذا كان اليوم الثاني قـــد لا يكون الطبيب نفسه هو الزائر فيعتمد الطبيب الجديد على السجل الذي انتقل اليه من الطبيب الاول . هـــذا برأيي مخالف لاصول الطباية اذ لا يكفي ان يقرأ الطبيب الجديد تقرير الطبيب القديم ، ان هناك حساً خاصاً لكل طبيب معالج ومسؤولية معنوية يتحملها الطبيب تجاه المريض نفسه . وعندما أبديت هـــذه الملاحظات علمت ان ما يشفع بهذا الامر الشاذ هو ان المعـــالجة في البيت لا تتعدى اليوم الواحد او اليومين . فهناك لا تجد مريضاً في الحمى مثلا ، أو في أية اصابة اخرى يتداوى في بيته . البيت هو للسكن لا للتداوي والاستشفاء ، والمستشفيات مفتوحة على مصاريعها لكل من كان بهم حاجة اليها ، لا تأخير ، ولا معامـــلة ، ولا انتظار أوراق ، ولا من يحزنون !

قلت ايضاً ان الطبابة مؤممة ، ولا يحرم أحد من الالتجاء الى الطبيب مجاناً وبدون أي مقابل . ولذلك لا يوجد هناك عيادات خصوصية للاطباء ليستقبلوا فيها مرضى خصوصيين يتقاضون عليهم

اجوراً . ولكن قد تجد بين الاطباء ذوي الشهرة العالية من يستقبل مريضاً له ولع خاص به أو ثقة خاصة ، وقد يقبض منه اجرة معاينة غير ان تحرياتي الخاصة في هذا الموضوع اظهرت لي ندورة هذه الحوادث وسرّيتها وذلك لعدم ارتياح السلطات لها ، فاذا وجد طبيب يسترق هذه الفرص الشاذة فغالباً ما يكون من الاطباء المخضرمين الذين يحنون الى العهد الذي كانوا فيه يتاجرون بالطبابة ويبيعون الصحة لقاء جعالة يدفعها لهم مرضاهم ، والمستقبل كفيل بالقضاء على هذه المطامع الخاصة .

ان الطبابة في جميع ارجاء الاتحاد السوفياتي هي في متناول كل الناس . فلا يوجد مريض يحرم من المعالجة والعناية اللازمة ، ولا يوجد مولدة اينما كانت تحرم من التوليد الفني . وقد لا اخطىء اذا قلت ان التوليد في البيوت لا اثر له مطلقاً في كل العالم السوفياتي ، فدور الولادة منتشرة في كل حي وفي كل مزرعة مهما كان حجمها ، والوالدة في مأمن على نفسها وعلى وليدها . ان النظام السوفياتي قائم على تحسين الانتاج ، وهو يعتبر الأم المنتج الاول في الدولة .

لقد أعطيتك ايها القاريء صورة عن الطبابة في الاتحاد السوفياتي وها اني اعطيك صورة مختصرة عن الطب هناك دون ان اتعبك بدرس علمي طبي . فاذا اشكلت عليك بعض العبارات العلمية فاضرب عنها صفحاً واتركها للاطباء من القراء لعلهم يجدون ما يروي غليلهم عن الطب في الاتحاد السوفياتي .

ان النظام السوفياتي بتأميمه للطب وجعله مصلحة او منفعة

عامة ، قضى على الطموح المالي عند الطبيب وصرفه عن الاهتمام بالماديات إلى الاهتمام بالناحية العلمية ، ولذلك ترى الابحاث العلمية والاختبارية تأخذ القسم الاكبر من نشاطه ، والسلطات تفسح له المجال للاكثار منها . ولقد اردت أن أتبين فيما إذا كان غلق باب الربح على الطبيب أقعده عن الانطلاق العلمي والتفوق فرأيت العكس تماماً. لقد زرت عدداً من المستشفيات في موسكو ولينغراد وطشقند وباكو ، واتصلت بكثير من اطبائها ومن اساتذة الجامعات ، فلمست نشاطاً مرموقاً في الناحية العلمية . ولولا بعض النقص في الاجهزة والمعدّات لبزّوا اطباء الدنيا قاطبة . هي الحرب التي أفقرت المستشفيات والمعاهد السوفياتية فشلت أيديهم عن الاتيان بعجائب الطب . ومع هذا فقد ظهر للآن من نتائج جدّهم الشيء الكثير ، ولا سيما في الحقل الجراحي .

لقد تعرفت في موسكو إلى الاستاذ « فيشنفسكي » أو بالاحرى الى الاستاذين « فيشنفسكي » الاب والابن وهما يعملان معاً في المستشفى الذي يرأسه الأب ، وهو مستنبط طريقة معالجة القرحة والفرغرنيا غير السكريه عن طريق الانسداد السيبمبثاوي بحقنه كمية كبيرة من محلول النوفوكايين بنسبة ربع في المائة في المنطقة الكلوية الخلفية بحيث يغرق الانسجة المحيطة بهذه المنطقة بالمحلول . ولقد أراني الاستاذ المشار اليه نتائج واحصاءآت هذه الطريقة تدل على عظم فائدتها . ففي حوادث الغرغرينا كانت النتيجة انه لم يضطر الى اجراء عملية البتر إلا في اثنين وثمانية اعشار بالمائة من الحوادث ، وهو يساعد الشفاء بواسطة مرهمه الخاص المركب من

زيت القطران واليود وزيت الخروع . والاستاذ يعمم هـذه الطريقة في معالجة القرحة المعدية التي اصاب بها نجاحاً محسوساً . وفضلاً عن ذلك فكل العمليات الجراحية التي يجريها هـذا الاستاذ ومعاونوه في مستشفاه الضخم لا يستعمل فيها مخـدراً إلا بواسطة محاوله الخاص عن طريق اغراق الانسجة المحيطة بمحل العملية . لقد قضيت خمس ساعات مـع الاستاذ « فيشنفسكي » في المستشفى وشاهدته في عمله ، فاكبرت في هذا الرجل سعة اطلاعه واجتهاده بالرغم من وزر السبعين الذي يحمله هذا الجسم الجبار والجميل معاً .

ولقد ذهبت في اليوم التالي إلى مختبر الاستاذ « بوغولوستش » الذي توفي مؤخراً تاركاً لتلامذته الاساتذة الدأب على مواصلة مـا بدأه منذ عشرين سنة ، وهو تحضير مصل لتطويل الاعمـار ، فاوضحوا لي عن الدروس والابحاث التي وضعها استاذهم الكبير والقائمة على مبدأ تغذية الانسجة الضامرة cennective tissue ، هذه الانسجة التي من جملة مهامها وقاية الخلايا ولا سيما الخلايا الكبدية من التعفنات العضوية ، فاذا اختلت هذه الانسجة وفقدت منها قابليـة النفوذ فتحت الآفاق لارتفاع الضغط وسهلت نموّ الاورام الخبيثة ولذلك استنبط « بوغولوستش » مصلاً من الطحال والنخاع العظمي على طريقة تحضير مصل الخانوق ، يحقن به الانسان على ثلاث دفعات ، ثم يعيد الكرّة بعد شهر ثم بعد سنة . وقـد ظهرت فائدة هذا المصل في استعماله للمصابين بالسرطان بعد اجراء العملية الجراحية لهم ، اذ تبين ان الانسجة الضامرة استعادت قسماً من فعّاليتها ، وبهذه الاستعادة تساعد على عدم الانتكاس او عـلى

الاقل تساعد على تأخيره ، وعلى هذا هم يعطون المصل لاكثر الذين أجريت لهم عملية السرطان . ان مدرسة « بوغولومتش » تواصل مساعيها بجدٍّ ونشاط .

وعندما زرت مدينة لينغراد قضيت يومين مع الاستاذين « ماشينسكي » والاستاذ « بتروف » الجراحين العالميين . الاول صاحب العملية لشفاء مرض Parkinson الارتجاجي عن طريق قطع الاعصاب في الثلاث فقرات العنقية بواسطة آلات وضعها لهذه الغاية . عملية فريدة شهدت له بها المحافل الجراحية الاميركية واتت بنجاح كبير . اما « بتروف » فلن اتكلم عنه تاركاً الكلام للرسم الموضوع في الصفحات التالية ، وهي صورة طبيب مصاب بالسرطان العظمي في أعلى فخذه وورکه الايمن اقتطع منه « بتروف » فخذه والجهة اليمنى كلها من الحوض العظمي حارماً اياه من ربع جسمه بعملية دامت خمس ساعات . لو لم اشاهد المريض واعاين موضع العملية ، لصعب عليّ تصديقها ، ولكن المريض كان لا يزال في المستشفى اذ انه لم يكن مضى على العملية اكثر من ثلاثين يوماً ، وهو بحالة تدعو الى الارتياح مستعداً لمغادرة المستشفى في ذلك الاسبوع .

اما مستشفى الجراحة التعميرية أو بالاحرى الترميمية في مدينة لينغراد فهو مستشفى فريد . هنا يصلحون العاهات التي سببتها الحرب للجنود كأنهم يرممون بيتاً مخرباً أو متداعياً ، يرممونه من هنا ويرقعونه من هناك ، فيركبون انفاً لمن طيرت القنبلة انفه ، ويزيلون التشويهات الوجهية ، ويلصقون جلداً صحيحاً بدلا من جلد مشوه . هنا معمل التصليح والتجبير والتجميل ، ملجأ لاصحاب

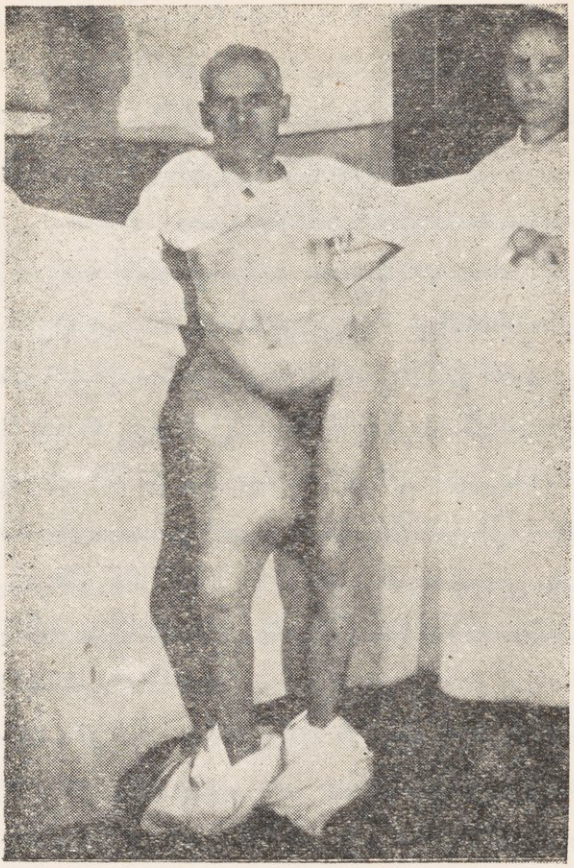

المريض قبل العملية – الوجهة الامامية

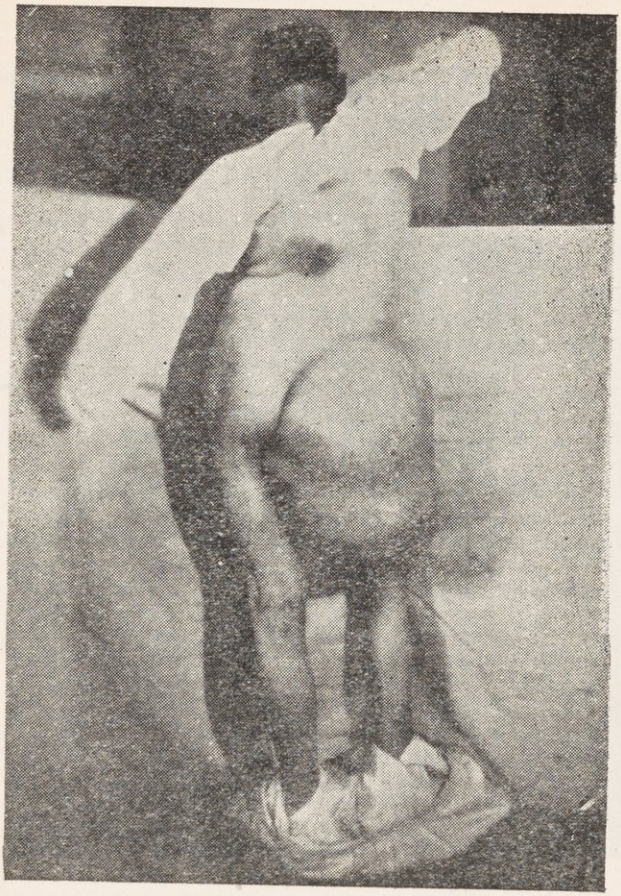

المريض قبل العملية – الوجهة الخلفية

القسم المبتور من المريض

العاهات ونعمة للمشوهين .

ومما يلفت النظر ان هؤلاء الاساتذة ، وكلهم من الشيوخ ، تتجلى فيهم البساطة باجلى مظاهرها فلا غرور ولا فخفخة في المعيشة ، ولا تبجّح ، تراهم في لباسهم كأنهم من العمال واثقين من انفسهم دائبين على العمل بهمة لا تعرف كللاً ولا ملالاً .

استأذنت الاستاذ « ماشنسكي » بالسؤال عما يتقاضاه من المعاش الشهري فاجابني والبسمة على وجهه : اني انقاضى سبعة الاف روبل ، وهي قيمه لا يرضاها من كان من امثاله مقابل عملية واحدة . ثم اردف « ماشنسكي » قائلاً : ما هي قيمة المال ، فانا في مأمن على حياتي وحياة عائلتي ، وافراد عائلتي كلهم يشتغلون ، ولا خوف على احدنا من الفقر أو من الموت جوعاً ، واخذ هذا الانساني يلقي درساً فلسفياً عن قيم الحياة ومقاييسها ، فوجدت نفسي امام شخصية من الشخصيات الانسانية الفذة . لقد كان من نتائج النظام السوفياتي ان قضى على المقاييس المادية واستبدلها بالمقاييس الفكرية وانزل الدرهم عن سلطانه وتحكمه بحياة الشعوب وتطور المدنيات .

ولا بدّ انك ايها القارىء تنتظر مني ايضاحاً عن مكافحة السرطان بعد ان تواردت عليك الاخبار ان في الاتحاد السوفياتي علاجاً يشفي من هذا الداء الوبيل . فاليك معلوماتي عنه وقد تحريتها تحرياً دقيقاً .

ليس هناك في الوقت الحاضر علاجٌ شاف للسرطان . وانما هناك دروس يأملون ان تصل بهم الى النتيجة المنشودة في مدة قد لا تطول

الى اكثر من عام ١٩٤٨ . وهذه الدروس قائمة على اساس مصل من سموم طفيليات « التربينوزوم » . فقد اجرى الزوجان الاستاذان « كلويفا وروسكين» تجربة حقن فئران مصابة بالسرطان بالطفيليات ذاتها ، فوجدا ان هذه الطفيليات تتجمع في الورم السرطاني فتبيد الخلايا الخبيثة ولكنها بعد قليل تقتل المصاب . فاستنارا بهذه التجربة وعمدا الى استخراج مصل من سموم الطفيليات هذه ، يؤثر في الورم دون ان يقتل المصاب ، واذ رأى الزوجان بصيصاً من نور دأبا على تحسين تجربتهما واختبارها على ضوء الابحاث العلمية ، واذا دخلت الى المعهد المختص بهذا الامر شعّت لك بوارق الامل بالنجاح المنشود .

اما الحرب التي يشنونها على السرطان في الاتحاد السوفياتي فلا تعرف الهوادة . فهم يعاينون العمال في المعامل كل سنة أو كل ستة أشهر ليعلموا اذا كان منهم من هو مصاب أو معرّض للسرطان دون ان يكون له علم به . وقد وجدوا من بين ستة وعشرين الف عامل ، اثنتي عشرة اصابة سرطانية لم يكن يشعر بها المصاب ، وسبعمائة حادثة عليها اعراض المقدمات السرطانية فعولجوا اما طبياً أو جراحياً قبل ان يصلوا الى حالة المرض نفسه . وقد كان من احدى الطبيبات « باتولسكايا » التي قامت بابحاث علمية دقيقة لاكتشاف السرطان الراكد بواسطة تفاعل جديد يحمل اسمها . فقد كانت تحدثني عنه بحماسة ودقة وتريني مراحل هذا التفاعل مدّعية انها اجرته على مائة وخمسين حادثة جاء في بعضها التفاعل ايجابياً فلم تلبث ان ظهرت عليهم فيما بعد الاعراض السريرية بعد

ان كان في حالة الركود عنـــد اجراء التفاعل . واذا رأيت « باتولسكايا » في مختبرهـــا ادركت اية قيمة ستكون لابحاثها في تشخيص أخبث علّة من علل الانسان .

ليس في نيتي ان اسهب في هذا الكتاب عن التقدم في الطب والجراحة في المعاهد والمستشفيات السوفياتية ، اذ ليس كتابي هذا كتاباً طبياً ،انما اردت فقط التنويه بالنشاط العلمي والعملي في هذا الحقل الانساني ، واني استطيـــع القول ولا حرج ، انه لو قدر لاساتذة الطب في الاتحاد السوفياتي من الوسائل الفنيـة والاجهزة والمعدات ما يوجد عند غيرهم ،لما ماشاهم احد في هذا المضمار ،ولكن النقص الموجود حالياً لن يطول عليه الزمن فيصبح لهؤلاء العلماء من الوسائل ما يمكنهم من السير في الصفّ الاول .

لقد زرت اكثر من عشرة مستشفيات في موسكو ولينغراد وطشقند وباكو ، فرأيتها بحاجة الى تجـــديد في البناء، وتحسين في الاجهزة، وقليلة هي المستشفيات الحديثة ،ان في بنائها أو في اجهزتها، غير ان نشاط العاملين ، والعناية الفائقة المبذولة فيهـــا ، والعمل المستمر بجد وصبر وعناد ، كل هذه الامور جديرة بالتقدير ومحفوفة بالامل بمستقبل طبي رائع .

الفصل السادس

المرأة . الطفل . العائلة

في دنيا المرأة – المرأة ليست انثى فقط – انقذتنا امرأة – الحب للحب – لا بغاء في روسيا – الزواج لم يعد عبئاً – الجمال في روسيا – الطفل سيد القوم – حدائق الاطفال – بيت اليتيم والرغبة في التبني – الكشافة الشيوعية – العائلة الروسية كما هي – من مذكراتي .

المرأة في الاتحاد السوفياتي لا تفرق عن الرجل الا بما فرّقتها به الطبيعة ، لتجعل منها انثى وتجعل منه ذكراً . تتعلم مثله ، وتعمل مثله ، وتعامل معاملته ، وتساويه في الاجور ، وتساويه في جميع الحقوق والواجبات ، اجتماعية كانت ام سياسية ، والنظام السوفياتي يبيح لها جميع الحريات التي يبيحها للرجل بعد سن البلوغ ، فهي القيّمة على نفسها ، والمسؤولة عن معيشتها وحياتها ، زواجها بيدها وبمطلق حريتها اذا هي لم ترد ان تشرك ابويها في الرأي ، هي انسان بكل ما في الكلمة من معنى ، هي امرأة وليست انثى فقط .

ان كل فتاة في روسيا بعد السابعة عشرة من عمرها وبعد

انتهائها من دراستها الثانوية ، تذهب الى العمـــل اذا هي لم تختر الذهاب الى العلوم العالية . تعمل في الصناعة والزراعة وفي خدمة المصالح العامة ، وتوظف في الدوائر الحكومية وغير الحكومية ، تنتخب اعضاء المجالس النيابية والبلدية ، وتُنتخب فيها ، تدخـــل الوزارات وتعين في السفارات ، لا يوصد في وجهها باب ولا تتكل على أحد الا على نفسها ، ويطبق عليها كما يطبق على الرجل المبـدأ العام « من لا يعمل لا يأكل » !

كنت مرة في السيارة مع وزيرنا الشيخ خليـــل تقي الدين ، وكان الثلج يتساقط بغزارة والارض مكسوة بالثلوج ، واكوامه تغطي الطريق ، وزجاج السيارة مغبر من الجليد . فاراد السائق ان يقطع خط التراموای دون ان يلاحظ مجيء القـــاطرة . وفي الدقيقة التي وصلت فيها السيارة الى الخط ، اقتربت القاطرة بسرعة خاطفة ، فهلعنا وهلع المارة للخطر المحـــدق ، فما كان من سائق القاطرة الا ان ضرب برجله موقف القاطرة (فرامل) ضربة قوية اوقفها على قيد متر واحد منا !. وعندما نزلنا من السيارة التي كانت غرقت بالثلوج ، حوّم حولنا المارون يساعدون على رفعها ، واذا بي اتطلع الى القاطرة فأرى في السائق فتـــاة لا يزيد عمرها عن الثلاثين ، على ثغرها بسمة الانوثة الجذابة ، ومن عينيهـا يشع نور الفروسية والعزم ، فشكرناها وقيّدنا لها في ذمتنا ديننـــاً علينا . وعندما عدنا الى سيارتنا وصحونا من هـذا الحلم المزعج ، قال لي الشيخ خليل « عندما ترجع الى لبنان اكتب في كتابك « لقـــد انقذتنا امرأة » . وها انا فاعل ما اراد .

شعرت يوماً اثناء زيارتي مصنعاً بقشعريرة تسري في جسمي فرجعت الى الفنـــدق ، فما كان من مضيفيّ الا ان ارسلوا طبيباً لمعالجتي ، واذا بالطبيب سيدة ، واذا كنت لم احتج الى دوائها ، فقد سررت بحديثها كامرأه لم تمنعها انوثتها عن اقتحام الحياة العملية ، فقلت حبذا لو ان بنات قومي يتشبهن بالمرأة الجديدة الطامحة !

وصلت الى مدينة طشقند ، وكنت بحاجة الى حلاقة ذقني التي ما لمسها الموسى في يومي السفرة ، ولم اكن مستعـــداً لأتولى الامر بنفسي ، فسألت مدير الفندق اذا كان هناك حلاق ، واذا بباب غرفتي يقرع بعد ربع ساعة وتدخـل آنسة بلباس أبيض نظيف ، فظننتها ممرضة اخطأت الغرفة ، انما علمت انها الحلاق ، فبقيت بين يديها ربع ساعة لأرى فيها امهر حلاق عرفته .

ولربما يخيل اليك ايها القارىء ان المرأة في تلك البلاد اضاعت فيها الحياة العملية انوثتها . ارجوك ان لا تؤخذ بهذا الظن الخاطىء . فالمرأة امرأة اينما وجدت ، تتبرج وتتزين وتتدلل ، دون ان يمنعهـا ذلك عن العمل ودون ان يمنعها العمل عن مستلزمات الانوثـــة . والمرأة الروسية معروف عنها انها تقدس الحب وتتلذذ بـه وتسعى اليه . ولكن ما لا تعمله هو المتاجرة بالحب . وفي ظني انـه بعدما فتحت لها آفاق العمل وخرجت عن الحياة الاتكالية أصبحت ترى في الحب حبـــاً فقط لا واسطة للتعيش . والذي يدرس أسباب البغاء في كل البلدان يصل إلى نتيجة واحدة وهي ان اكثر ما يدفع المرأة إلى البغاء هو الحاجة والاعتماد على الآخرين في المعيشة .

ان البغاء ممنوع قانونياً في الاتحاد السوفياتي ، ولكن هذا لا يعني

أبداً ان النساء متعففات تعفف العذراء مريم . وليس التحابب والغرام غير ممنوعين فحسب، بل هما من الامور المرغوب بها جداً والكثيرة الحدوث جداً ، إنما التحابب يجب أن يسبقه حب ، والتعاشق يجب ان تهيأ له المهيئات من ميل ومن تمازج نفسي أو شهواني . وهناك يحافظون جداً على مظاهر الفضيلة ، ففي اثناء وجودي في روسيا لم تقع عيني على شاب يقبل فتاة في الشارع ، ولا رأيت عاشقين يتبادلان الغرام في ساحة أو حديقة عامة . وقد قال لي أحد سفراء الدول العربية ان ما لم أشاهده أنا في شهر لم يشاهده هو في السنة التي قضاها هناك . ان المرأة الروسية تقدس الحب وتمارسه، وإذا اثمر حبّها عن ولدٍ تلده دون زواج، فالسلطة لا تحرمه ولا تحرمها من حقوق الامومة والبنوة ، فليس في الاتحاد السوفياتي اولادٌ غير شرعيين . المولود مولود لا فرق بين هذا وذاك ، غير ان الذي تحريته وعرفته انه بالكاد تجد ابنة غير متزوجة لا سيما والزواج لم يعد عبئاً ينوء تحته الزوجان لما تقدمه لهما ولاولادهما الدولة من تسهيلات المعيشة .

أما الطلاق فليس بالامر السهل كثيراً كما قد تتصور . فقد أخبرني أحد المحامين ان أقصر وقت لاتمام عملية الطلاق شهران ، وحوادث الطلاق قليلة والسبب هو ان الزواج مبنيّ على التحابب والتوافق لا على المصلحة والاتجار .

أما وقد تراكمت عليّ الاسئلة من الكثيرين ، ولا سيما الكثيرات عن جمال المرأة الروسية فمن باب التعريف أقول اني رأيت هناك وجوهاً جميلة وجذابة ، ولمست وداعة ولطفاً في

أحاديث المرأة الروسية ، ولكني قلما رأيت قامات ممشوقة هيفاء في موسكو بينما رأيت منها اكثر في لينغراد. فلتسامحني بنات موسكو على هذه الملاحظة التي قد تكون خطأ ولكنه خطأ غير مقصود . فلن أنسى يا سيدتي « الموسكوية » جمالك ووداعتك وبشاشتك وحلو حديثك . هي صفات ترفعك إلى عرش الانوثة الجذابة المغرية .

*

لا اظن ان في بلد من بلدان الدنيا يدللون الطفل كما يدللونه في الاتحاد السوفياتي . فهو هناك سيد القوم ، لا يطاله الحرمان ، ولا تقيده قيود النظام ، ولا فرق بذلك اذا كان الطفل شرعيا او غير شرعي ، عقيدة خرافية بنظر العالم السوفياتي .

في هذا العالم مئات بل الوف من دور الحضانة موزعة على الاحياء في المدن والقرى ، ومفروض على كل مصنع بان يوجد لعاملاته داراً للحضانة يأوي فيها اطفالهن من عمر شهرين الى ثلاث سنوات ، عندما تكون الامهات في اشغالهن في النهار . واذا اضطرت الام للعمل الليلي بقي طفلها في تلك الدار يلقى من عناية ممرضاتها ما يستحيل على اي امٍ مهما بلغت وسائلها بان تقدمها له .

لقد زرت عدداً من هذه الدور في مختلف المقاطعات السوفياتية فرأيت العجب العجاب . هنا قاعة خاصة للاطفال دون السنة ، فيها الملاعب « المدربزة » يلعب فيها الطفل دون ان يخشى عليه من العثار ، تعطى امه ثلاث فرص في النهار لتأتي لارضاعه وتهيء له الدار طعاماً خاصاً بدل المرات الاخرى مدروساً على الاساليب

الفنية من حليب البقر مزاداً عليه كمية من الفيتامين والجير . واذا عجزت الام عن ارضاعه لاسباب صحية ، فيأتونه بمرضع تدفع لها الدار ثمناً لحليبها عدا عما يسهل من وسائل التغذية الخاصة . وعندما يصل الطفل الى الدار يصبح تحت عناية ممرضاته . ممرضة تحممه ، ثم تعطيه الى زميلة لها لتروضه على الطرق العلمية بينما هي تلهيه بالدغدغة والغناء . شاهدت عملية الترويض على يد احدى المختصات ، فغبطت الطفل وهو يتابع حركات الممرضة بابتسامته الطاهرة ، واعجبت بالمروضة .

وهذه قاعة للاطفال من ذوي السنتين او اكثر ، يلعبون ويرقصون ويغنون على قرع البيانو من يد استاذه في الموسيقى فرأيتهم فرحين ، هم يغردون وممرضاتهم يصفقن لهم . هم يزرعون في الطفل الروح الموسيقية والفنية منذ صغره .

وهذه غرفة خاصة لمعالجة الاطفال بالمعالجات الطبيعية والفيزائية اذا كانوا بحاجة اليها حيث يعطى الطفل جرعات من الاشعة البنفسجية لتقوية عضلاته وعظامه .

وما هو أشد دهشة من كل هذا ، ذلك الرواق الذي يحشد فيه الاطفال ، فيلف الطفل بلباسٍ من الفرو الكثيف من رأسه الى اخمص قدميه بحيث لا يظهر منه الا عيناه وانفه وفمه ، ويترك هناك مدة خمس أو ست ساعات في اليوم بينما نكون الشبابيك مفتوحة على مصاريعها مهما كان البرد شديداً (عندما زرت دار لينينغراد كانت درجة البرد ٢٥ تحت الصفر) . وقد شاهدت هؤلاء الاطفال نائمين هانئين ، لا هم يتململون من البرد ولا اهلهم ولا

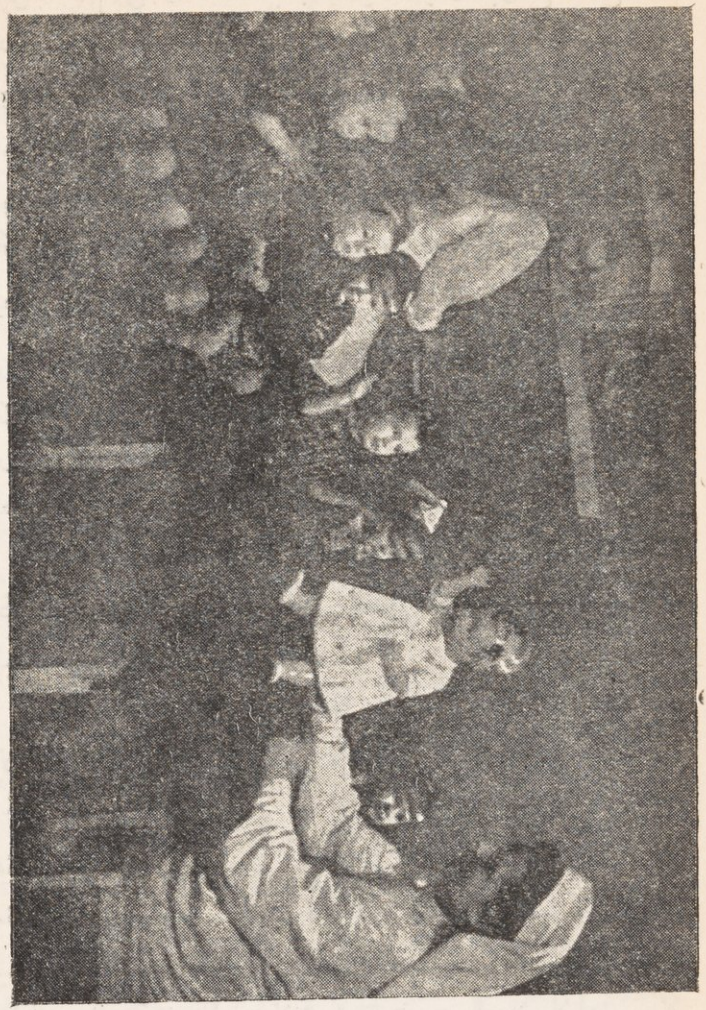

في حديقة الأطفال

العناية بالطفل

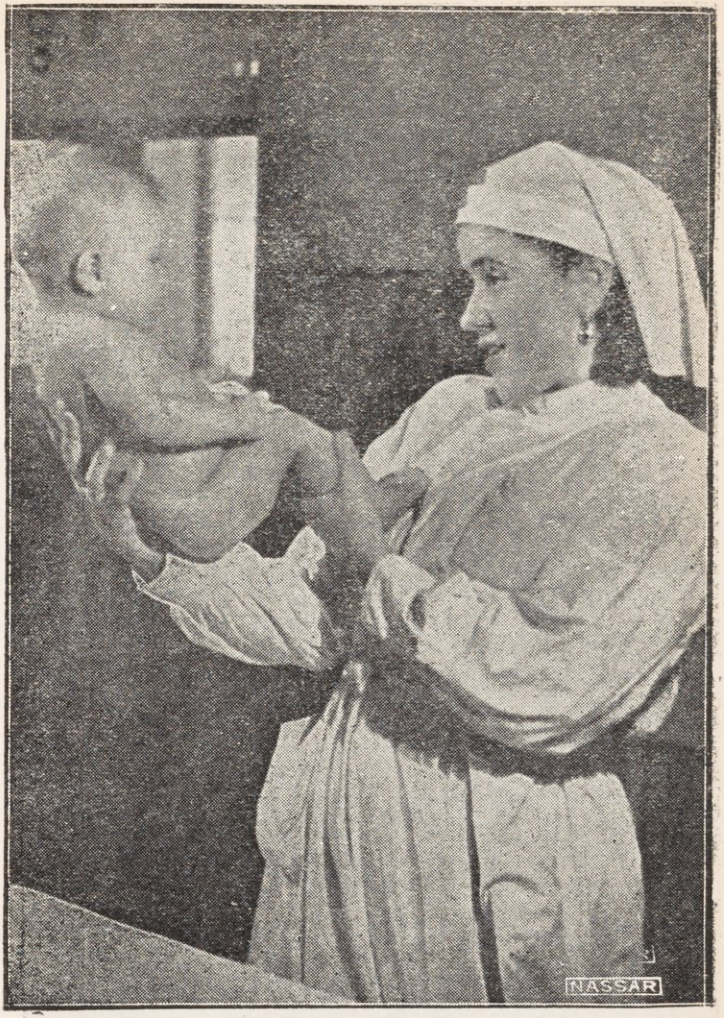

ترويض الطفل

ممرضاتهم ، يخشون عليهم الضرر .

وهذه غرفة تجتمع فيها الامهات ليتلقين دروساً خاصة عن كيفية العناية بأطفالهن من حيث الطعام والملبس واللعب وهلمجرّا .

من الدور ما يتسع لمائتي طفل ، ومنها ما يتسع لعشرين فقط بالنسبة لحاجة الحي أو القرية أو المصنع . لقد ذهبت يوماً الى احدى هذه الدور في مدينة ليننغراد وهي معدة لمائة وخمسين طفلاً ، فقضيت في هذه الجنّة ثلاث ساعات هي من ألذ ساعات العمر . يعمل في هذه الدار طبيبان وأخصائية للترويض واستاذة موسيقى ، هذا وبالطبع عدا عن الممرضات والخدم . اما الطبيب فهو فقط لتدابير الوقاية . هم لا يعطون ادوية علاجية للطفل الا في حالات استثنائية خاصة . علاجهم الوحيد هو الترويض والتمسيد والعناية ، على ان كل طفل يلقح ضد السلّ والخانوق والجدري . يعطى مطعوم calmette الواقي من السلّ في اليوم الاول أو الثاني من ولادته قبل ان يترك دار الولادة ، ثم مطعوم الخانوق في الشهر الاول ، ثم مطعوم الجدري ، بحيث لا يمرّ عليه الشهران الاولان دون ان يكون ملقحاً ضد هذه الامراض الثلاثة .

أما الدار فتعقم يومياً بمحلول الكلورين واحد بالمائة . ان النظافة اولى الواجبات . وعندما تدخل ايها الزائر ، فهاك القميص البيضاء تلبسها مثل كل الذين يعملون هناك . انت داخل الى قدس الاقداس ، الى بيت الطفل . المطبخ تحت ادارة واشراف مدير فني أو مديرة . لكل فئة طعام يوافق افرادها . وقد علمت ان هناك يبدأون اطعام الطفل ابتداء من الشهر الخامس

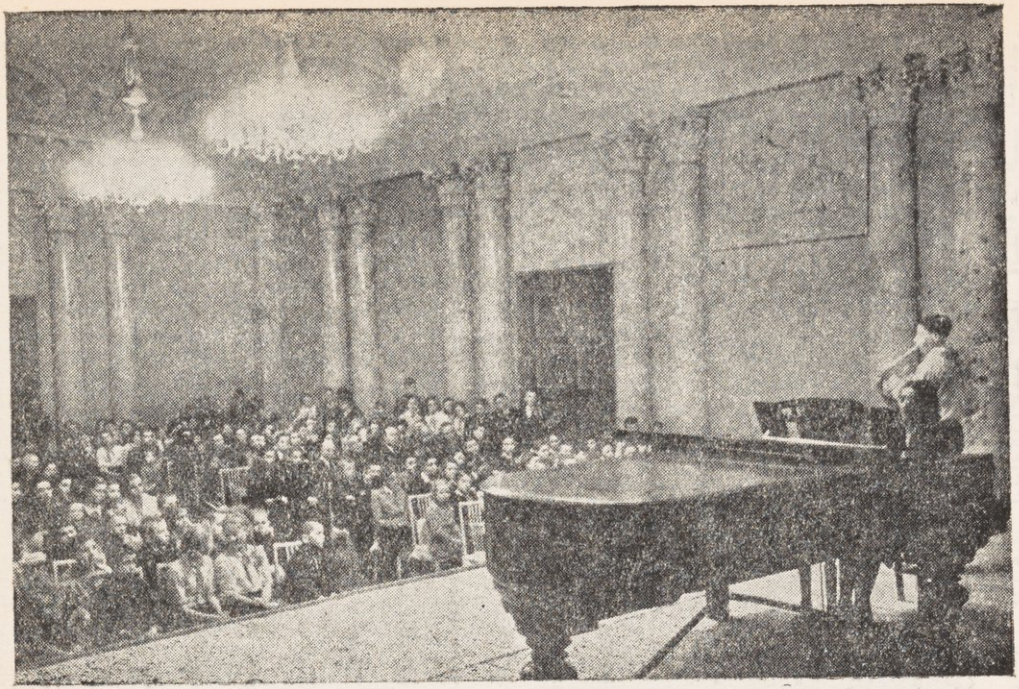

النادي الموسيقي لفرقة الكشاف السوفياتي

دون ان يحرم من حليب امه أو من حلب المرضع .

كل قاعات الدار مزينة بالرسوم المفرّحة للاطفال ومبعثرة فيها الاعيبهم ، ولم أرَ قاعة أو رواقاً أو مدخلاً إلا على جدرانه صورة ستالين ولينين يعانقان طفلاً أو يلعبانه ، دليلاً على أهمية الطفل في عالم ستالين ولينين .

ان الدولة تتحمل ثلاثة وتسعين بالمائة من نفقات هذه الدور اما السبعة بالمائة الباقية فيدفعها الآباء او الامهات أو النقابات التي ينتمون اليها . فمن كان في مقدوره ان يدفع ، يؤخذ منه نسبة مئوية من معاشه لا تتعدى الواحد بالمائة ، ومن كان معاشه لا يخوله الدفع ، دفعت عنه نقابته لان هذا يدخل في مصلحة التأمين الاجتماعي الذي تقوم به الحكومة والنقابات معاً . فما من عامل صاحب معاش الا وينتمي الى نقابة ما ، يغذي صندوقها بجزء من معاشه يتراوح بين الواحد والاثنين بالمائة ضمانة له ولعائلته من المرض والعجز والطوارىء .

ان دور الحضانة هي بهجة للذي يشاهدها ، وهي جنة الحياة للطفل في العالم السوفياتي. هذا الطفل الذي يرون فيه امل المستقبل.

*

وما أن يخرج الطفل من دار الحضانة ، وهو على عتبة الرابعة من عمره ، حتى يفتح له بستان الاطفال ليبقى فيه اذا رغب والداه الى سن السابعة ، يصرف فيه نهاره ويأوي الى بيته ليلاً . وهنا أيضاً يربون الطفل على انغام الموسيقى والمشاهدات السينمائية والتصويرية ، ينام على الوقت ويأكل على الوقت ، لا كتاب يقرأه ،

ولا فرض يكتبه ، انـــه في البستان لا في المدرسة . زرت مرة احدى هذه الدور في الساعة الثانية بعد الظهر ، وهو وقت القيلولة فرأيت منظراً ما اجمله ! قاعة واسعة تحوي اربعين سريراً على اتم ما يكون من النظافة والترتيب والتنسيق ، والاطفال نائمون نوماً هادئاً وعيون الممرضات ساهرة عليهم سهر الام الرؤوم .

ثم زرت بيتاً خاصاً للاولاد الذين فقدوا آباءهم وامهاتهم . هنا يجد اليتيم ما لا يجـــده في بيته ، بحيث لا يتركون له مجالا للشعور بمركب النقص فيه ، انهم يلهونه بجميع الطرق ، ويعدون له السرير النظيف الوثير ، وتلقي عليه وعلى رفاقه احـدى المعلمات احاديث منها للتفكهة ومنها للتدريس . انه يذهب في الصبـاح الى المدرسة اذا كان في سن الدراسة ، ثم يعود الى هذا البيت ، بيته لتستقبله امه بل امهاته الحنونات . وقد علمت ان عدداً من هؤلاء الايتام يذهبون من هذا البيت الى احضان عائلة ولوعة بتربية البنين وقـــد حرمها القدر من الاولاد ، على ان الادارة لا تعطي ولداً لعائلة ما بقصد التبني إلا بعد ان تدقق جيداً بمكانة العائلة ، وبالعاطفة التي يستقبل بها الولد ، وهي تواصل مراقبتهـــا الى ان تطمئن الى مصيره وإلا ارجعته الى بيته الاول . وقد اخبرتني رئيسة احدى هذه الدور ان عدد طلاب التبني من العائلات كبير . فانهم يسجلون اسماءهم وطلباتهم لتتاح لهم الفرصة فيأتي دورهم . هي عاطفة انسانية ووالدية ، غريزة تخلق مع الانسان كما تخلق مع الحيوان ، ثم تنمو في الاول وتضمحل في الثاني ، ميزة خاصة بالانسان .

وفي حديثي عن حيـاة الطفولة والودلوية ، لا بدّ لي من التنويه

بمنظمة الكشاف اذا اردت ان تسميها كذلك . هنـــاك يسمونها Pioneer . في هذه المنظمة ينخرط الفتى أو الفتـــاة اثناء دراسته الثانوية . وهي عبارة عن نوادٍ يؤمهـا الفتيان ونواد تؤمها الفتيات بعد الانصراف من صفوفهم ليجدوا فيها جميع اسباب اللهو والتعليم. هنا غرفة يشتغل فيها الفتيان ما يميلون اليـــه من الاشغال ، هذا يسعى لصنع جهاز راديو ، وهذا يتذوق صناعة الخراطة ، فيجد ما يلزمه من الالات والماكنات ، وذلك يجد في تركيب اجزاء طائرة. وآخر يهوي بمنشاره على قطعة من الخشب ليجعل منها قارباً ، وجار له يشتغل في الحفر أو النحت أو التصوير ، الى مـــا لا يحصى من مختلف الصناعات والاشغال . واذا دخلت الى غرفة الفتيات تجد الخياطة ، والمصورة ، والرسامة ، والفنانة ، وهلمجرّا . والى جانب كل هذا ناد للرقص والموسيقى وقاعة للسينما. فما ان يخرج الفتى والفتاة من صفهما حتى يهرعا الى هذه النوادي ليجدا فيها اللذة المنشودة . ومما لا يخلو من مغزى ان الحكومـة خصصت في مدينة لينينغراد ، بطرسبورج القديمة ، احد قصور الاباطرة الفخمة وجعلته ناديا لهذه المنظمة . ففي هـــذا القصر الامبراطوري ، حيث كان القياصرة يتذوقون مع حاشياتهم من الاشراف لذائذ العيش والابهة ، يتنادى هؤلاء الكشافون للاجتماع بالبستهم الرياضية وياقاتهم الحمراء ، يلعبون ويرقصون ويتسامرون ، فاذا دخلت قصرهم ادركت اية ثورة يقوم بها العالم السوفياتي في سبيل مستقبله وحياته .

*

اما الحياة العائلية والاجتماعية فاليك وصفاً عنها :

اذا كان ما تعنيه بالحياة العائلية هو ان تكرس الام كل وقتها لابنها ، تغني له لينام ، وتعمل ليكسل ، وتسرق له الدراهم من جيب ابيه ليصرفها على اللهو والحسان ، وتسهر الى نصف الليل ليأتي « حشاشه قلبها » فتطعمه وتطمئن الى راحته ، فهذا شيء غير موجود في روسيا السوفياتية . واذا كنت تعني بالحياة الزوجية بان الزوج هو السيد المطلق في البيت وان الزوجة ما وجدت الا لخدمته ، وانه حرّ بالتصرف كيفما شاء وهي مقيدة بقيود الزواج المحكم ، يتظاهران بعكس ما يخفيان ، ويتعايشان كيما يقال انهما يتعايشان ، فهذا ايضاً غير موجود في روسيا السوفياتية . واذا عنيت بالحياة الاجتماعية ان يتزاور الناس على الطريقة التي تتزاور بها العائلات عندنا مثلاً ، فيجتمع افراد هذه العائلة يوماً في بيت هذه ويوماً في بيت تلك ، فتبسط موائد الاكل والشراب ! ويدور لعب « البوكر » و « البيناكل » ويعلو ضجيج المساجلات الانتقادية والاغتياب « والتركيب » فهذا ايضاً وايضاً غير موجود هناك ، في المدن على الاقل . فليس للناس من الوقت لهذه الاجتماعات ، ولا المساكن موسوعة لها . اما اذا كنت تعني بالعائلة تلك الرابطة المقدسة بين الاب والام والاولاد ، فاسمح لي بان اقول ان العائلة الروسية هي نموذج صالح للعائلات . ولكن علي ان اوضح لك اكثر عن العائلة والحياة العائلية هناك .

قلت لك انه ما من احد في روسيا لا يشتغل ، لا زوج ، ولا زوجة ، ولا ابن راشد ، ولا ابنة راشدة . فبطاقة الاعاشة لا تعطى الا لمن يعمل . ومن النادر ان تجد زوجاً يستطيع ان يستغني عن

هذه البطاقة في يد امرأته واولاده الراشدين ، اللهم الا اذا كان من اصحاب المعاشات الكبيرة ككبار الاساتـــذة والعلماء والاطباء والمهندسين، او اذا كان من كبار مؤلفي الموسيقى ومؤلفي الكتب الادبية او العلمية او الفنية ، حتى زوجات اولئك وبناتهم يجدن انفسهن شاذات اذا بقين كسولات في بيوتهن . ولكن ما لنـــا ولهذه الاقلية ، اننا نأخذ بالاكثرية الساحقة .

فاذا اضطر الابوان للذهاب الى عملهما نهاراً ، واذا لم يكن لهما من يعتني بالاولاد في البيت ، اودعاهم احـدى الدور المعدة لهم ، الاطفال في دور الحضانة او في حدائق الاطفال ، والذين هم في سن الدراسة يذهبون الى المـــدرسة ليعودوا الى الوكر العائلي مساء فيجدوا هناك اباهم وامهم او احدهما اذا كان عمل الثاني لم ينته بعد. ولكن قد تتغير الحال عندما يكبر الاولاد ويخرجون من المدرسة الى العمل ، فعندئذ يتفرق شمل العائلة الى حدّ ما ، واظن ان الحال كذلك في البلدان الاخرى الغربية او في اكثرها . فعندما يذهب الاب الى عمله في معمل مثـــلاً، تذهب الام الى عملها في مكتب ، ويذهب الابن الى عمله في وظيفة ما وتذهب الابنة الى عملها في فندق او مطعم ، وعنـــدما تكون اوقات العمل لكل منهم غير مطابقة بعضها للبعض ، مع العلم ان هذا الامر يؤخذ بعين الاعتبار على قدر الامكان ، فمن الطبيعي ان يكون ذلك مانعـــاً من بقاء العائلة مجتمعة . ومما يزيد في تفريق الشمل ان كل فرد من افراد العائلة يحمل بطاقته بيده ، هذا يأكل في مطعم المعمل الذي يعمل فيـه ، وتلك تتعشى في الفندق الذي تشتغل فيـــه وهلمجرّا . والمساواة

المطلقة التي تتمتع بها الفتاة مع الشاب والمرأة مع الرجل تبيح لهذه ان تذهب مثلاً الى الاوبرا بينما يذهب اخوها الى النادي ، هي تعود الى بيتها في الساعة الواحدة وهو يعود في الساعة الثانية . فكل هذه الامور من شأنها تفريق ابناء العائلة الواحدة . غير ان ما اقوله عن الحياة في المدن لا يصدق كله عن الحياة في القرى والريف ، اذ ان الحياة هناك أضيق من ان تتسع لهذا التوزيع . اما السهرات في البيوت و « العصرونيات » وما اشبه فهذه ايضاً من حظ ابناء الريف اكثر مما هي من حظ ابناء المدينة .

هذا من حيث الحياة العائلية والاجتماعية . اما من حيث المحبة العائلية ، فلا اوفى من ان ارجع الى ما دونته في مذكراتي في اثناء الشهر الذي قضيته في الاتحاد السوفياتي .

اجتمعت بسيدة وكانت تشتغل في فندق آواني بضعة ايام . وقد كنت اجلس اليها يومياً نتجاذب الاحاديث المختلفة ، وعرفت انها ترملت في الحرب ، ولها ولد عمره ست سنوات وهي تعيش مع امها المقعدة في بيت واحد . وكان التأثر يبدو على وجهها كلما حدثتني عن تلك الام . فقلت لها مرة : ولماذا لا تدخل امك المستشفى ؟ فاجابت بكثير من الالم : « لا أمل من شفاء امي ، وهي ليست مريضة برسم المعالجة ، وتستطيع ان تعيش من معاشها التقاعدي ، وهي مولعة بولدي ، وانا مولعة بامي ، فلماذا أحرمها من هذه التعزية وهي على عتبة الموت ؟ ولماذا أحرم نفسي وأحرم ولدي من رؤيتها ومعاشرتها كل يوم ؟ انها امي ، وهل يسهل على المرء ان يهجر أمه ؟ وعندما كانت تحدثني لمحت دمعة

تترقرق في عينها فسكت احتراماً .

شاهدت مرة تلميذاً من تلامذة الطب يدخل إلى مخزن من المخازن الحرة يفتش عن سلعة ليشتريها . فعجبت لشاب لا يتقاضى الا معاش التلمذة وهو ما يكفيه لقوته الضروري ، يسأل عن خاتم ثمنه يستهلك كل معاشه . فقلت له أتوفر من قوتك لتشتري هدية لابنة أو انت عاشق يا فتى ؟ فقال لا . انما هي اختي وستتزوج في هذين اليومين، ولا أريد ان تترك اختي البيت دون ان أقدم لها تذكاراً مني .

وشاهدت ذات يوم امرأة عجوزاً تعانق سيدة من العائلات في الفندق بمحبة وحنان ، وهي ممسكة بيد طفلة لا يزيد عمرها عن السنتين، ثم يجلس الثلاث معاً، الطفلة تتنقل من حضن العجوز الى حضن الشابة، ثم من حضن الشابة إلى حضن العجوز . وكنت عرفت من السيدة ان زوجها مات شهيداً في الحرب . وعندما غادرت العجوز والطفلة الفندق ، تقدمت من السيدة وسألتها من تكون هذه الزائرة وهل هي امها فاجابت: لا، هي حماتي تحبني كما تحبني امي. ولما كنت سألتها : لماذا لا تتزوجين ثانية، قالت لي بعد هذه المقابلة الثلاثية : اليك الجواب عن سؤالك ، اني لا أطمح إلى زواج ثانٍ فانا أعيش لطفلتي ، وانا وهذه العجوز مطمئنتان لحياتنا في ذكرى ولدها الوحيد زوجي .

لقد دونت في مذكراتي هذه الحوادث الثلاث ولا شك انها ليست الوحيدة من نوعها . فقلت في نفسي ، تباً للدعايات التي تعمل على اظهار الروس بمظهر الحيوانية الجامحة ، أتراها تخدم

بذلك قيم الانسان كما تدعي ؟

لا يا أخي . ان الروسي انسان مثلنا ، له عاطفة ، وفي قلبه حنان ، فاذا سيطرت الواقعية وروح العمل على حياته ، فذلك لا يعني انه انقلب الى كائن يعيش ، ويأكل ، ويعمل ، دون ان يتحسّس بما يتحسّس به من يستحق بان يسمّى انساناً .

الفصل السابع
« بين الروح والمادة »

الفلسفة الشيوعيـة – تأثير فلسفة ابي العـلاء –
كونكورداتو مع الاديان – حضرت القداس في موسكو
وصلاة الجمعة في الجامع – لا دينية الدولة .

تقوم الفلسفة الشيوعية على اساس المادية الجدلية المستقاة من تعاليم « كارل ماركس » و« انكلز » . لا ايمان الا بما يقره العقل ويفسره العلم ، فكأني بهذين العالمين درسا في مدرسة ابي العـلاء المعرّي واستوعبا فلسفته . ألم يقل هو قبلهما بمئات السنين :

« كذب الناس لا امام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء »

وايضاً :

« قلتم لنا خالق قديمٌ قلنا صدقتم كذا نقول
زعمتموه بلا زمانٍ ولا مكان ألا فقولوا
هـذا كلامٌ له خبيءٌ معناه ليست لنا عقول »

وايضاً :

« نردّ الى الاصول وكل حيٍّ له في الاربع القدم انتساب »

وايضاً :

« اثنان أهل الارض ذو عقلٍ بلا دين وآخر دينٌ لا عقل له »

على هذه الفلسفة بنت الاشتراكية السوفياتية نظامها ، واخذت بالمبادىء التطورية الطبيعية في جميع أنظمتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وعندما اصطدمت في بدء عهدها بالروح التي كانت طاغية في ذلك الزمن ، وقامت في طريقها العراقيل من الذين كانوا يتاجرون بالروح ويدعون انهم قيّمون على البشر باسمها ، عمدت إلى الطفرة ، وقلبت الاوضاع العتيقة كلها ، واسكتت صوت الروح اسكاتاً زجرياً ، فثارت عليها الكنيسة وتجند لمحاربتها رجال الدين في روسيا والعالم اجمع ، وبقيت الحرب سجالا إلى ان ارتضت الكنيسة بان تكون ممثلة للروح دون ان تطمع بسلطة او سيادة على مقدرات الانسان الزمنية ، واباحت له التمييز الادراكي والعقلي ، وبكلمة أخرى ، عندما ارتضت الكنيسة ورجالها بان يكون الدين دينا لا شريعة ، عند ذلك ارتضت الدولة بدورها ان تبيح للذين يؤمنون بالروح ان تكون هي الواسطة بين دنيا المؤمنين وبين ما وراء دنياهم. وعلى هذا الاساس أعيد فتح المعابد لممارسة الطقوس الدينية ، ما دامت هذه الطقوس لا تعارض أنظمة الدولة المدنية وشرائعها اذ ان الشرائع من صلاحية الدولة وحدها . انت تذهب الى الكنيسة او الى الجامع للصلاة فقط ، وليس للكاهن ولا للشيخ ان يفرضا عليك شرعتهما ، واذا أنت ارتضيت بشرعتهما ، فقبولك لها لا يقيد الدولة باقرارها ولا بتنفيذها . اذا بارك الكاهن زواجك فانت غير متزوج ما لم تقر زواجك الدولة بقانونها ، واذا كنت مسيحياً وتزوجت بمسلمة او

بالعكس فلا دخل للشريعة الدينية في امرك ، واذا توفيت فلا يسري مفعول « للذكر مثل حظ الانثيين » واذا طلقتك الشرائع المدنية من زوجك فلا قيمة لفريضة « ما جمعه الله لا يفرقه انسان ». لا حق لمحكمة روحية او شرعية بان تحكم بنفقة او بوصية او بحرمان. لتحرمك من دخول الجنة اذا شاءت ، ولكنها لا تستطيع ان تحرمك من خيرات الارض ومن حقك فيها .

ومع هذا ، فالمؤمنون في الاتحاد السوفياتي ليسوا قليلين . والعقيدة الدينية تبلورت من حال الى حال. فالمؤمن اليوم ، مؤمن حقاً بعد ان تخلّص من خرافات بعض رجال الدين ومن اباطيلهم .

ولكن ما هي نسبة المتدينين الى غير المتدينين في روسيا ؟ مما لا شك فيه ان نسبة المتدينين تنقص شيئاً فشيئاً ، بينما نسبة غير المتدينين تزداد . ربما كان هذا شأن العالم الجديد كله ، غير انه في العالم السوفاتي يمشي التحوّل بخطى أسرع من غيره . لماذا ؟ اسأل كارل ماركس وانكلز اللذين ما دخلت معهداً او متحفاً او فندقاً إلا ورأيت صورهما أو تماثيلهما في أبرز قاعاته .

وكان يوم الاحد في ٢٤ شباط ، فقرأت في بطاقة هويتي التي كنت احملها اني ارثوذكسي المذهب ، شذوذ فريد في بطاقة الهوية اللبنانية ، فقلت اذن هيا الى القداس . سألت عن كاتدرائية موسكو ، فاهتديت الى مكانها من احد ابناء البلاد . فذهبت معه ، ورافقنا احد رفاقي في البعثة ، وهو أيضاً ارثوذكسي ، وحضرنا قداساً بطريركياً احتفالياً ، وكانت الكاتدرائية على كبرها وسعتها

مزدحمة بالمؤمنين أو بالمصلين، نساء ورجالا، شباناً وشابات واطفالا. قلت المؤمنين أو المصلين، لاني لا اعرف اذا كانت الجماهير المحتشدة كلها من ذوي الايمان أم بعضها من الذين يأتون للصلاة لاستماع هذه الجوقة الموسيقية التي ما سمعت أجمل منها ولا أشد وقعاً في الاسماع.

ولم ارضَ لنفسي التحيزّ للمسيحية دون الاسلام، فذهبت أيضاً للصلاة في الجامع. اليست الصلاة لله مقبولة في جميع المعابد؟ وكنت مع رفاقي في البعثة، فحضرنا صلاة الجمعة، يرأسها مفتي الاتحاد السوفياتي عبد الرحمن الرسول، وسمعته يلقي الخطبة من المحراب ويعظ المؤمنين بالخير، وبالنهي عن المنكر، وبالطاعة للسلطة، وبالدعاء لستالين، فعجبت لامام يدعو في الجامع الى غير مسلم! وسألت عن ذلك احد رفاقي المسلمين ففسّرها لي تفسيراً جدلياً، استخلصه من فريق من المجتهدين القائلين بجواز الدعاء للحاكم الصالح!!..

وقد كان الجامع أيضاً محتشداً بجماهير المؤمنين. وكنت اراقبهم في اثناء الصلاة فرداً فرداً، فاذا بخمسة وسبعين بالمائة منهم من الذين يزيد عمرهم عن الستين بينما الخمسة والعشرين الباقين يتراوحون بين الاربعين والستين. فلماذا يأتي الشبان المسيحيون الى الكنيسة ولا يأتي الشبان المسلمون؟ وفي عرفي ان في الاسلام تديناً اكثر من المسيحية. ولا فرق في نظر الدولة بين هذا وتلك، فهي تؤمّن المعاشات لرجال الدين من كل الطوائف، ولا اظن الدولة تعرف من هو المسيحي من رعاياها ومن هو المسلم. فأصدرت

حكما استنتاجياً لا ادري اذا كان صواباً أو لا ، مع اعتقادي بصوابيته، ان الكنيسة هناك اقدر من الجامع على اجتذاب المصلين بجوقتها الموسيقية الساحرة وباصوات المرتلين ، والناس في روسيا ولاسيما الشبان يتعشقون الموسيقى ويتلذذون بالحانها .

ان علمانية الدولة امر مفروغ منه،ولا دينية الفلسفة الشيوعية، لا تقبل الريب، فهي وليدة الجدلية المادية العلمية ، فاذا علمت مدى اهتمام النظام السوفياتي بالعلم وبالابحاث العلمية الطبيعية وبتهافت الجيل الناشىء على طلبه والتعمق فيه ، ادركت معي لماذا قلت ان عدد المتدينين هناك في نقصان مستمر .

زرت يوماً مكتبة لينين في موسكو في بنايتها الضخمة التي تجمع على رفوفها احد عشر مليون مجلد من مختلف المواضيع واللغات . وعندما كنت اطوف اقسامها بدت لي رغبة الشعب في الدرس والمطالعة واغتراف العلوم . ففي قاعات المطالعة التي لا يقل عدد مقاعدها عن الثلاثة الاف ، لم اجد مقعداً واحداً فارغاً ،ورأيت صف المنتظرين كصف الواقفين على ابواب الاعاشة في ايام الجوع. فاعجبت بهذا « الهوس » العلمي عند الشعب .

قلت ان الفلسفة الشيوعية قائمة على العلم والجدل لا على الايمان، ولهذا ترى ابواب العلم مفتوحة على مصاريعها كلها في روسيا السوفياتية تشويقاً للناس على اغترافه والاخذ بقيمه ومفاهيمه .

انا اعلم،من قبل ان اذهب الى الاتحاد السوفياتي ،ان الشيوعية قائمة على اللادينية البحتة وان الانتساب الى الحزب الشيوعي يقضي

بان يعتنق طالب الانتساب اليه المبدأ اللاديني . ولكني رأيت ان الحزب يتسع صدره لاحترام عقائد الناس مع احتفاظه لنفسه بحق السهر على نظامه وعلى دنياه .

كن على اي دين شئت ، واعبد ربك كيفما شئت ، مادام دينك لايتعرض لدنياك .

الفصل الثامن

« لينينغراد »

لينينغراد الجبارة ـ مدينة الفن والعلم والعمل ـ اناقة سيداتها ـ « بطرس الاكبر » ـ حضرت الفيلارمونيا .

لينينغراد مدينة الجمال والفن ، عاصمة بطرس الاكبر سابقاً وعاصمة لينين حالياً لؤلؤة البلاد الروسية ، اسطورة الحرب .

لن اصف مدينة لينينغراد ومتاحفها وقصورهـا وابنيتها اذ لا مجال للوصف في هذا الكتاب ، انما الذي اريد اثباته هنا انه في اثناء زيارتي لها تجلّت لي روح المقاومة والعناد في سكان لينينغراد الذين قاسوا من ويلات الحرب ما لم يقاسه سكان أية مدينـــة أخرى (ما عدا ستالينغراد) .

لقد كان يحدثني الاستاذ الكبير الطبيب « ماشنسكي » الذي ذكرته في حديثي عن الطب في الاتحاد السوفياتي ، والعزيمة بادية على وجهه ، والشرر يتطاير من عينيه الجذابتين ، لقد كان يحدثني عن حصار لينينغراد ، وعن استمرارهم على العمل في المستشفى ، وعن اصابة المستشفى خمس مرات بقنابل الطائرات ، وعن القتلى والجرحى الذين ذهبوا ضحيتها ، وعن الحرمان الذي احتملوه في الغـــذاء

والتدفئة ، وعن صمود الاهلين في وجه الغزاة ، فعرفت منه اية قوة وقفت في وجه الالمان ، وادركت عندئذ لماذا لم يستطع اولئك قهرها والفتك بها .

وكان الدليل الذي رافقنا في اثناء رحلتنا ، من اهالي لينغراد السيد « سابلين » وهو شاب على درجة من العلم والثقافة ، فسألته يوماً اذا كان من الذين اشتركوا في الحرب ، فقال : نعم لقد اشتركت في الحرب ، وقضيت اكثر مدتي في ايران ، فضاعت علي الفرصة بان اكون من ابطال لينغراد . فانتفخ الشاب « انتوني » المصور الخفيف الروح وقال ، اما انا فقد كنت مصوراً حربياً كل مدة الحصار ، وقد نالت الصور التي اخذتها جائزة تفوّق في معرض لندرا .

الله من بطولة لينغراد ! واهالي لينغراد ! لقد قلبوا ببطولتهم وجه الحرب ووجه التاريخ .

ان اكثر ما يستلفت النظر في مدينة لينغراد قصورها ومتاحفها وحدائقها العامة وتماثيل قياصرة الامبراطورية وابطال الثورة الشيوعية . ومن الانصاف ان يقدّر لرجال الثورة السوفياتية محافظتهم على مظاهر الامجاد الروسية في العهد القيصري بعد انقراضه على ايديهم . فعندما تطل عليك تماثيل بطرس الاكبر وكاترين ونقولا الاول ، وعندما تطل عليك من جهة ثانية ، تماثيل لينين وستالين وابطال الثورة الاشتراكية ، تدرك ان الشيوعية لا تزال ضنينة بالروح القومية والوطنية الروسية ، تحتفظ بالتاريخ ليكون عبرة للاجيال المقبلة ليسير ابناؤها على ضوئه ينسجون عنه حسناته

ويعملون على تدارك سيئاته، متسلحين بروح تقدمية جديدة شعارها العلم والعمل والتضحية .

دخلت الى « القصر الامبراطوري الشتوي » وطفت في متحفه العظيم الذي يسمونه Hermitage فحرت في أي المتحفين اكثر جمالا وعظمة « لوفر » باريس أم Hermitage . لينغراد . وشاهدت قاعات اللهو والسمر ومعابد القياصرة، والمفروشات الثمينة، والتحف الأخاذة ، والجواهر الغالية ، فلم اعجب لماذا ثارت العامة على الذين كانوا يهدرون اموالها ويسخّرون قواها ويستعبدونها لكي يعيشوا عيشة الترف والابهة والجلال .

إن من يزور هذه المدينة، يجد في بطرسبورج، مهد الامبراطورية الروسية كما يجد في لينغراد لحدها ، ولكنه يستطيع ان يقرأ على ابوابها وفي تاريخها عظمة الشعب الروسي ومجده .

وفي مدينة لينغراد تتجلى روح الفن ، ابنية شاهقة ومتسقة احسن تنسيق، ومتاحف لا يحصى لها عد ولا يوفي قدرها قلم، ومسارح ونواد موسيقية تبهج القلب ، وقد لا اكون مخطئاً اذا وضعت لينغراد بين أهم المدن العالمية رونقاً وجمالا ان لم تكن هي الاولى على الاطلاق .

حضرت سهرة في نادي «الفيلارمونيا»، جوقة مؤلفة من مائة قطعة موسيقية ومن مائة مغنٍ ومغنية . الكل بالالبسة الرسمية ينشدون لاول مرة لحناً وضعه المؤلف الموسيقي « ليفتين » في ذكرى قتلى الحرب ، ويقود الجوقة « مرافنسكي » ، اشهر موسيقي الاتحاد السوفياتي وحامل وسام ستالين . لست من هواة الموسيقى لاصف

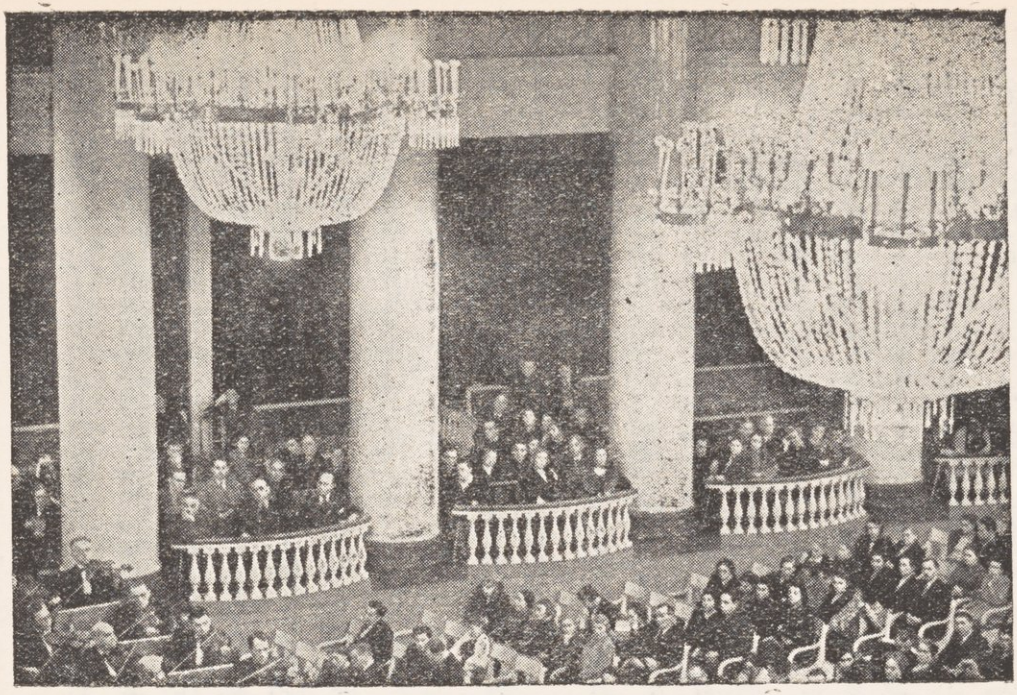

القاعة الموسيقية الكبرى في لينينغراد

هذه الحفلة الفاتنة ، كل ما اريد ان ادونه في هذه الصفحة هو ان هذه الحفلة الموسيقية استطاعت بشجي الحانها وانغامها ، وسيطرة قائدها على المائة عازف ومغن، واناقة مغنياتها الجميلات ، استطاعت ان تثير في نفسي، انا «الغشيم» في فن الموسيقى، الجاهل قيمتها، رجّة من الانفعالات النفسانية والاغراء الموسيقي احسبه كافيا لتعريف القارىء بهـــذه الناحية الفنية الـــتي تفوقت فيها مـــدينة لينغراد .

وقد استلفت نظري عندما وصلت اليها ان سكانها اوفر نعمة من سكان موسكو . ففي موسكو قلما التقيت بسيدة متأنقـــة بلباسها، بينما رأيت في لينغراد كثيرات من المتأنقات يلبسن الملابس الفاخرة ، فدفعني فضولي الى ان اسأل ذات يوم احدى السيدات عن السبب في هذا التفاوت وعما اذا كانت الروح الارستوقراطية الموروثة عن تقاليد ثلاثة قرون هي السبب، فقالت: لا ، انما يرجع ذلك الى ان في لينغراد تكثرفئة الفنانين والموسيقيين وارباب العلم، وهؤلاء يربحون اكثر من غيرهم، فباستطاعتهم ان يكونوا من ذوي النعمة والرفاه. ان موسكو مدينة عمل قبل كل شيء ، اما لينغراد فمدينة فن وعمل .

وتأبى مدينة لينغراد الا ان تحمل دائماً اسماء مجددي روسيا . فقد حملت اسم « بطرس الاكبر » في ايام القياصرة ، وهي تحمل اسم « لينين » اليوم . الاول بنى مجد روسيا ، ووضـــع اسس الثورة الصناعية والتمدينية فيها، والثاني اشعل فيها ثورة ثانية وجدد مجدها بعد ان حلّت به عوامل الانحلال والانـدثار . وبالرغم من

انقراض العهد القيصري ، فلم تبخل الثورة السوفياتية بالمحافظة على تخليد اسم ذلك النابغة الجبار بطرس الاول .

صفحتان من ابوز صفحات التاريخ ، كتب احداها بطرس الكبير في بطرسبورج من مائتين واربعين سنة ، وكتب الثانية لينين في لينغراد منذ ثلاثين سنة .

تمثال بطرس الاكبر في اكبر ساحات لينغراد

الفصل التاسع
الى « طشقند »

ليلتان في الطريق ـ ليلة « جوـلي » ـ خطاب في العربية ـ مكافحة الامية في اوزبكستان ـ اكاديمية العلوم ـ الطبيبة « شوروخوقا » ـ طشقند القديمة والجديدة ـ الحمد لله مسلمان ؟ـ الاويرا في طشقندـ الشعوب التي تتطور قفزاً ـ حضرت مجلس السوفيات الاعلى .

قبل ان تطلب السفر من موسكو إلى طشقند ، أنظر إلى الخريطة اولاً حتى إذا عرفت ان المسافة بين المدينتين ثلاثة آلاف كيلومتر فعندئذٍ ترى أمستعد أنت لهذه المغامرة أم لا. اما نحن فلم نحسب حساب المسافة عندما أعلمنا مضيفينا اننا نرغب في الذهاب إلى طشقنداذ ان الرغبة في استطلاع جمهورية اوزبكستان السوفياتية امتلكت مشاعرنا وقبلنا المغامرة .

ركبنا الطائرة في صباح ٦ اذار على أمل الوصول الى طشقند في اليوم التـــالي ، واذا كان مضيفونا وضعوا طائرة خاصة تحت تصرفنا ، فانهم لم يقدروا ان يتحكموا بالجوّ ، فابى هـــذا الاخير الا ان يضطرنا الى الهبوط مرتين في الطريق ، المرّة الاولى

كان هبوط الطائرة اختيارياً في مدينة « اكتوبنيسك » حيث بتنا ليلة في فندق في المطار ليس فيه من اسباب الراحة الا النـــذر القليل. اما الهبوط الثاني فقد كان اجبارياً بناء على اشارة لاسلكية تلقاها الطيار قبل وصولنا الى طشقند بساعتين ، تشير الى ان الحالة الجوية في مطار المدينـــة لا تسمح بهبوط الطائرة دون خطر ، والطيارون السوفيات على طول باعهم في الطيران شديدو الحذر ، ولا سيما اذا كانوا يقودون طائرة تحمل بعثـة رسمية . فحططنا في مطار بلدة « جوسللي » واضطررنا الى البقاء هناك من الساعـــة الحادية عشرة صباحاً الى الصباح التالي . عشرون ساعة حسبتها عشرين يوماً . لا فندق في المطار الا بناية خشبية فيها خمس غرف ، وفي كل منها اربعة اسرّة حديدية لا يسعك الواحد منها الا اذا نمت مسمّراً دون ان تتحرك يمينـــاً أو شمالاً ، فراشه اذا سميته فراشاً ، لم يلمسه الماء ولا الصابون منذ ايام او منذ اسابيـــع ، منتفعاتـه من بقايا الحضارة الفطرية ، اذا شعرت بالحاجة الملحاحة فعليك ان تذهب الى خارج البناية لتقضي حاجتك وراء ستار من الخشب في حفرة مبيتة بالخشب ايضـــاً ، ملطخة بالاقـذار ، وتفوح منها الروائح الكريهة السامة ، فاما ان تقضي حاجتك فيها واما ان تعصيك طبيعتك فتستنكف الخضوع لاوامر الساعة لتعتصم بالجمود فتمزق احشاءك تمزيقاً . وفي الغرفـة المسمّاة « بوفه » شربنا الحساء وما كنا نحمل معنا من الزاد دون ان نسأل عن مقتضيات المحافظة على الصحة . فقد تحدينا الميكروبات وغطسنا في دنياها الى القعر. ففي فندق « جوسللي » او على الاصح في خان «جوسللي»

انت براءٌ من تعاليم « باستور » ومن قواعد « الهيجين » كلها .

ان ليلة « جوسلي » بعد ليلة « اكتوبنيسك » وما صادفت فيهما من شقاء الساعة ومرارتها تهيبان بي للفت نظر السلطات السوفياتية المحلية الى نقص في التدابير الصحية الضرورية في بلدتين ، ولربما في غيرهما من امثالهما ، لا يجوز ان يكون ، لا سيما وعلى مسافة عشرين متراً مما يسمّى فندقاً في « اكتوبينسك » يرتفع عدد من التماثيل الفخمة لاقطاب الرجال السوفيات ومشاهيرهم يكلف كل منها من المال ما يبني عشرين « مستراحاً » . لم استطع ان امرّ في مذكراتي بهذه الناحية الصحية دون ان ابدي عنها ملاحظة بريئة بقصد التنبيه ، والصديق من صدق ولو قسى .

وصلنا الى مطار طشقند في الساعة الحادية عشرة في صباح ٨ آذار ، فوجدنا في استقبالنا وكيل وزارة الخارجية الاوزبكستانية ورئيس دائرة التشريفات فيها ومندوبي مؤسسة « فوكس » . وشد ما كانت دهشتنا عندما اصغينا الى خطبة ترحيبية يلقيها باللغة العربية الفصحى وكيل الوزارة ، ادركنا منها اننا اصبحنا بين اناسٍ قريبين منا . ثم ركبنا السيارات الى الفندق ، او بالاحرى الى « المنزول » الذي اعدّ لنا حيث لقينا من المشتغلين فيه من ضروب الضيافة والراحة ما يعجز عنه الوصف . فبقينا ننعم بهذه الضيافة طول مدة اقامتنا في طشقند التي دامت ستة ايام . اني سأذكر ما حييت هذا المنزول الجميل ، واذكر للقائمين عليه ضيافتهم البرمكية وسهرهم على راحتنا وتقديمهم لنا أشهى المآكل وافخر الخمور .

في اليوم الثاني من وصولنا طلبنا ان نزور المدارس في طشقند ،

واخترنا مدرسة ثانوية للبنات ، فشاهدنا فيها كيف يبنى المستقبل . دخلنا الى الصفوف السبعة ،ولم يكن للمدرسة علم سابق بزيارتنا ، فرأينا التلميذات الاوزبكيات يدرسن علومهن في اللغة الاوزبكية كلغة اولية . فكل العلوم من حساب وتاريخ وجغرافيا وعلوم طبيعية تدرس بلغة البلاد . وفي طشقند لاتنقصهم الكتب الموضوعة في الاوزبيكة التي انقلبت حروفها من عربية الى روسية . اما اللغة الروسية فتدرس كلغة فقط ، ست ساعات في الاسبوع ، والتلميذة كالتلميذ ، تدرس لغة من اللغات الانكليزية او الالمانية او الفرنسية ساعتين في الاسبوع . في طشقند ثمان واربعون مدرسة ثانوية للبنات بمعدل خمسمائة تلميذة في كل مدرسة . وبين الثماني والاربعين مدرسة ، اربع وعشرون تدرس فيها الاوزبكية كلغة اولية ، والاربع والعشرون الاخرى تدرس فيها اللغة الروسية كلغة اولية ، وهذه تؤمها بالاكثر البنات الروسيات الاصل ، على ان طريقة التعليم واحدة في كل من القسمين ، وهي في طشقند مثلها تماماً في موسكو ولينغراد والاقطار السوفياتية كلها . وهؤلاء البنات الاوزبكيات يحتفظن بقيافتهن الوطنية ، وفساطينهن الملونة و « العرقية » الاوزبكية المزركشة ، مضافاً اليها الياقة العنقية الحمراء شعار الشيوعية . هؤلاء البنات يتاح لهن نفس الفرصة المتاحة لاية ابنة روسية . لا تعليم ديني في المدارس ، انما يوجد مدارس خاصة يعلم فيها الدين لمن رغب فيه . وقد فهمت ان الراغبين قليلون . والذي علمته بشيء غير قليل من الدهشة أن هناك مدرسة خاصة تتعلم فيها البنات اليهوديات او اللواتي يرغبن ذلك منهن ، تدرس

فيها اللغة العبرية كلغة اولية او كلغة مساوية للاوزبكية على الاقل ، فقلت في نفسي ، حتى في الاتحاد السوفياتي يأبى اليهود الا ان يحتفظوا بطابعهم الخاص . فقد التقيت بفتاة يهودية تعمل في احد المعامل التي زرتها ، لم تبخل عليّ بالتعريف عن نفسها بانها من بنات اسرائيل ، في حين انني قلما عرفت من الذين اجتمعت بهم الى اي دين او اية طائفة ينتمون . ولكن لا خوف على النظام السوفياتي ، فلا بد من ان يصهرهم في يوم من الايام في بوتقة القوميات التي يعيشون فيها ، وذلك عندما يرون انفسهم بهذه العقلية الدينية المنعزلة ، اذ ليس من السهل ان لم اقل من المستحيل على من يتمسك بالدين ، ايا كان ، ان يعتنق الشيوعية العملية ، او يدخل عضواً عاملاً في الحزب الشيوعي . وفي الواقع ان عدداً من شباب بني اسرائيل المثقف ، بتزايدٍ مستمر ، خرجوا عن طابعهم الديني ، واخذوا يماشون الفلسفة الجديدة اللادينية . اما الصهيونية فهي جرم بنظر الدولة ينالها الجزاء . لقد تحرّيت بنفسي أمر اخواننا الاسرائيليين فأيقنت بعد هذه التحريات ، انه سيأتي يوم تندثر فيه الانعزالية اليهودية ، ويزول غرور اليهود القائم على فكرة زرعها في عقولهم انبياؤهم وقضاتهم وفلاسفتهم ، انهم شعب الله الخاص ، ومتى زالت هذه الخرافة يرتاح العالم من قضيتهم التي اشكل حلها على ممر الاجيال وجلبت عليهم وعلى الدنيا جمعاء شتى المصائب والويلات .

*

منذ ان وصلت طشقند ، وانا اتحين الفرصة لازور مستشفياتها .

فخصصت لهذه الزيارة يوماً كاملا استغنيت من اجلها عن الذهاب الى « سمرقند » مع رفاقي في البعثة. فزرت اربعة مستشفيات زيارة خاطفة ، ثم اخترت أن اتخذ من مستشفى امراض النساء والتوليد مقراً لي في ذلك اليوم . وكان من حظي ان رئيسة هذا المستشفى سيدة من كبار اساتذة الطب في جامعة طشقند اسمها « شوروخوفا » قدرت عمرها بخمس وستين سنة ، اقول قدرت لأني ، على وقاحتي ، لم تفقد مني بعد اللباقة لأسأل سيدة عن عمرها. وقد زاد في حظي ان هذه الاستاذة الكبيرة تتكلم الانكليزية ، وهي من الثقات المشهود بعلمها في العالم الطبي ، ليس السوفياتي وحسب ، بل العالمي ايضاً ، ولها مؤلفات بعضها مترجم الى اللغات الاجنبية ، ولها دروس وابحاث علمية معترف بها في اميركا التي زرتها منذ بضع سنوات .

ان هذا المستشفى لا يختلف بشيء عن مستشفيات موسكو من حيث الطبابة والعناية بالامهات والاطفال . وقد رأيت المريضة الاوزبكية الى جانب المريضة الروسية ، لا ميزة للثانية على الاولى ، والمستشفيات في جميع انحاء الاتحاد السوفياتي ليس فيها درجات . أما اطباء هذا المستشفى الذين يزيدون على الخمسين طبيباً ، بنسبة طبيب واحد لتسع طبيبات ، فاكثريتهم من الروس ، على ان عدد الاطباء والطبيبات الاوزبكيين يتزايد سنة عن سنة ، وقد يصبح جميع الاطباء او اكثرهم من الاوزبكيين بعد عشر سنوات لما عند هؤلاء من الهوس الجديد في تلقي العلوم .

اما الاستاذة « شوروخوفا » فهي من المخضرمات ، قدمت الى

طشقند سنة ١٩١٦ وكانت تتعاطى الطبابة معزوجها الطبيب ايضاً في عهد النظام القيصري ، وبقيت في طشقند بعد وفاة زوجها وانقلاب النظام ، وهي نائبة في مجلس السوفيات الاعلى . سألتها ، وهي المخضرمة ، عن رأيها في أي الطريقتين أفضل ،الطبابة الحرة أم الطبابة المؤممة ، وهل هي راضية عن حالتها الحاضرة اكثر مما كانت في الماضي ؟ فقالت : اذا ما نظرت للامر من وجهتي الخاصة ، بدون أي نظر الى العموم ، وبدون نظر الى رسالة الطب في الحياة الانسانية ، فحياتي كطبيبة في الماضي كانت تفسح لي مجال العيش والرفاه الوافر يحسدني عليه الغير . اما الآن وقد انصرفت عن الاهتمام بالارباح المادية ، فانا اليوم كاستاذة ، اتقاضى معاشاً يكفيني كل الكفاية دون ان تلهيني الارباح عن الانصراف الى العلم والابحاث ، واذا كنت انت تحسبني من العلماء ، وقالت هذا بتواضع لامزيد عليه ، فان ذلك يرجع الى غلق باب الفردية في وجهي وفتح باب العلم والخدمة العامة على مصرعيه ، والطب ايها الزميل هو رسالة اكثر مما هو حرفة . لقد احببت هذا الوجه المشرق واكبرت في هذه السيدة روحها وانسانيتها ، وفي اثناء وجودي في طشقند عرفت اي مركز تحتله « شورو خوقا » في قلوب الاوزبكيين كافة .

ولا بد لي من ان اقول بهذه المناسبة ان المستشفيات الاخرى التي زرتها في طشقند عدا هذا المستشفى ، والتي هي بادارة الاطباء الاوزبكيين والتي يقل فيها عدد الاطباء والعاملين الروس ، لا تتناسب مظاهرها ودلائل الاعتناء بالنظافة والترتيب مع الاعمال الطبية والجراحية التي يقوم بها اطباؤها . فقد وجدت في هذه

المستشفيات من الجراحين امهرهم ولكن وجدت ايضاً نقصاً محسوساً في التمريض والتنظيم والتنظيف مما جعلني احكم بان الوطنيين لا يزالوان بحاجة الى مساعدة الروس الذين يسميهم الاوزبكيون اخواننا الكبار .

*

بعد ان تجولت في المدينة وفحصت امورها استطعت ان اكون لنفسي فكرة عن العاصمة الاوزبكية . وها اني انقلها اليك ايها القارىء ، لتعرف شيئاً عن هذه البلاد التي ربما جهلت عنها كل شيء وقد كان ذلك شأني قبل زيارتي لها ، واسمح لي ان اهمس في اذنك اني لست كثير الغباوة والجهل في التاريخ وعلم الشعوب ، ومع هذا فما كنت اعرف عن طشقند الا انها موجودة في قلب آسيا وانها كانت فيما مضى من العصور ، ذات حضارة ثم فقدت كل معالمها فيما بعد واصبحت مدينة قاحلة جاهلة ، سكانها اميون ، وحضارتها اقرب لحضارة العصور الاولى الهمجية ، تهجع في الجهل ، وترضى بالعبودية ، ولا تطمح الى التقدم والتحرر .

اما اليوم فمدينة طشقند ، بعد عشرين سنة فقط من قيام الجمهورية الاوزبكية واستقلالها ضمن نطاق الاتحاد السوفياتي ، اصبحت مدينة ذات طابع مدني تقدمي ، تقوم فيها جامعة عالية ومدارس ثانوية عديدة ، بحيث لم يبق فيها اثر للاميـة ، وتقوم فيها اكاديمية للعلوم يعمل فيها عددٌ عديد من الاساتذة العلماء ، كل ضمن دائرة اختصاصه ، يؤلفون الكتب ويطبعونها في مطابعهم باللغة الاوزبكية . ومما يجدر ذكره ان في طشقند خمسة عشر مسرحاً

للتمثيل ، منها مـــا هو من نوع الاوبرا ومن نوع التمثيل الهزلي والدراما ، وفيها من اندية الموسيقى والسينما ما يفسح المجال لاي فرد من السكان لارتيادها باجور زهيدة او بدون جور البتة ، وفيها نوادٍ للرقص والقراءة والمطالعة ، ومثل كل بلدان الاتحـــاد السوفياتي لا يوجـد اي ناد للمقامرة . انهم يريدون ان يتلهى المرء بما يغذي فكره وروحه . اما المهيئات المفسوحة للاطفال والفتيان والشباب ذكوراً واناثاً فحدث عنها ولا حرج ، فكلما وصفته عن نواحي الحياة الاجتماعية في موسكو ولينينغراد يصح قوله في اوزبكستان وفي كل جمهورية من جمهوريات الاتحـاد . صورة طبق الاصل عن النظام السوفياتي في جميع نواحيه .

ان مدينة طشقند التي يبلغ عدد سكانها المليون بعد ان كان ثلاثمائة الف في العهد الماضي منقسمة الى قسمين ، ـــ ـــ والقسم الجديد . فالقسم القديم هو عبارة عن مجموعـة اكواخ من اللبن تشبه اكواخ القرى والدساكر في الداخلية السورية ، سكانها يلبسون الملابس الوطنية ، « طاقية » صغيرة على الرأس يتفننون في تطريزهـا ، ثم فسطان مزركش (للنساء) فوق سروال يصل الى الكاحل غالباً ما يكون من اللون الاحمر او الازرق المعرّق ، اما القدم فتقنع مدة الصيف بالحفـاء على ان تكتفي « بمشاية » من الجلد او اللباد في الشتاء . وليس في ملابس الرجال ما يختلف كثيراً عن ملابس فلاحي سوريا ، حتى تلامذة المدارس في هذا القسم من المدينة يحتفظون بملابسهم التقليدية .

اما المدينة الجديدة فهي على طراز المـــدن الكبرى الروسية

والاوروبية . بنايات شاهقة ، ونوادٍ كبيرة ، ومسارح مزخرفة فنية ، وسكان يرتدون اللباس الاوروبي . والمدينة الجديدة تكبر سنة عن سنة ، بينما المدينة القديمة تصغر وتهجر ، ولن يمضي اكثر من عشرين سنة حتى تصبح هذه اثراً من آثار التاريخ .

وسكان اوزبكستان الوطنيون كلهم يدينون بالاسلام المتطور كما اسلفت ، عندما كنت اتحدث عن الدين في الاتحاد السوفياتي . ومن شبابهم من تطبع بالطبائع الشيوعية اللادينية . ولكن لا اكراه في الدين . المتدينون يمارسون دينهم بحرية واسعة ، وهم يقبلون بسرور او على مضض ، اذا كانوا من الشيوخ المحافظين ، التحول عن الشرائع الدينية والعقائدية والرضوخ الى الشرائع المدنية البحتة في الزواج والطلاق والارث والوصاية والنفقة . والمحاكم الشرعية في طريق الانحلال لان صلاحياتها واحكامها لا تقيد احداً ، والحجاب لم يبق له اثر ، واذا مشيت في الشارع لا تستطيع ان تميز بين المرأة المسيحية والمرأة المسلمة ، واذا ذهبت الى الاندية العامة والمسارح رايتها تغصّ بالناس ، مسلمين وغير مسلمين منهم الممثلون والممثلات ، ومنهم الراقصون والراقصات ، ومنهم المشاهدون والسامعون والمشاهدات والسامعات ، لا علامة فارقة ولا من يحزنون ، والكل يطمحون الى الخلود الفكري والعملي والانتاجي قبل الخلود الروحاني . وقلّما تجد زملاء لذلك الطبيب الشيخ الفارسي الاصل الذي سألني عندما زرته في المستشفى قائلاً « أأنت والحمد لله مسلمان » فاجبته لا . فقال « انت ماذا اذن » فقلت « انا رجل اؤمن بالحق وادين بالمحبة ولا اعبد احداً » فظهرت على وجهه ابتسامة

لم ادرك معناها ، احتقاراً كانت ام اشفاقاً ام ادراكاً منه ان الدين لم يبق اهلاً للسيطره على عقلية البشر وحياة الشعوب . فانبسطت بحديثي اساريرِ صديق اوزبكي من الشباب كان يرافقني في زيارتي وهو على جانب كبير من الثقافة ، حلو الحديث ، ظريف المعشر ، يحتل مركزاً مرموقاً اسمه « احمدوف » ساحفظ له في قلبي اطيب الذكريات .

حضرت الاوبرا في طشقند مرتين . وقد كان التمثيل في الليلة الاولى ، في مسرحية « بيران » يدور حول حوادث الاضطهاد والارهاق التي كان ينزلها الحكم القيصري في اوزبكستان وحالة الفقر المدقع التي كان يعانيها اهل تلك المقاطعة مما ادى الى توثب الشعب الاوزبكي لاستقبال الثورة بقلوب تعمر بالبغض والكراهية للحكم الامبراطوري . فما ان وصلت الى مسامعهم اخبار قيام الشعب الروسي حتى حملوا بدورهم السلاح ضد الولاة القيصريين وانضموا الى ثورة الشعب التي انتهم بالحرية والاستقلال الذاتي .

اما في الليلة الثانية فقد مثلت رواية « مجنون ليلى » او « ليلى مجنون » كما يسمونها هناك .

ومما يجدر ذكره ان مؤلفي المسرحيتين اوزبكيان ، وواضع الموسيقي اوزبكي اسمه « مختار اشرفي » وهو حامل وسام ستالين وان افراد الجوقة كلهم أزبكيون وكلهم يدينون بالاسلام .

ان الفن المسرحي في اوزبكستان بلغ في عشرين سنة فقط ، درجة مدهشة ، وان بناية الاوبرا في طشقند تحفة فنية رائعة لم اجد مثلها في موسكو ولا في لينينغراد ، وهي من صنع مهندسين

اوزبكيين ونحاتين اوزبكيين ، وكل ما فيها ومن فيها اوزبكي مائة بالمائة .

لله درك يا طشقند ! لقد كنت في الماضي القريب عاصمة قذرة لبلاد قذرة ، يتخبط سكانك بالجهل والكسل والهمجية ، فاذا بك الآن عاصمة جمهورية اوزبكستان، تستثمرين خيراتك، وما اكثرها ! وتنتشر فيك وفي ملحقاتك العلوم ، ويزين حياتك الفن ، واذا بابنائك ينتقلون من دياجير الجهل الى عالم النور . لله درك ايتها الممثلة الاوزبكية المسلمة « حليمة راحيموفا » لقد بينت لنا كيف يمكن للمرأة ان تبرز في ميدان الحياة الفنية عندما مثلت مع رفيقاتك على المسرح ، دون ان تمنعكن التقاليد العتيقة ، ودون ان تأبهن للقيود التي اراد ان يقيدكن بها الذين اتخذوا من الاديان وسيلة لابقائكن في ادنى دركات الجهل . لقد استحققت منا الثناء والاعجاب بعد ان زينت صدرك الاوسمة ، فكنت وستظلين درساً يلقيه العالم الجديد على المتمسكين بالميراث القديم ، ليتهم يأخذون عنك وعن اوزبكستانك وعن الذين هتكوا ستائر الظلمة ففتحوا لك ولاخوانك الآفاق الواسعة ، ليتهم يعون ويعتبرون ، او ليتهم يسكتون .

*

ما ظننت يوماً ان اوزبكستان تتطور في ربع قرن الى ما تتطورت اليه . سألت عن عدد الاميين في هذه الجمهورية التي لم يكن عدد المتعلمين فيها قبل الثورة السوفياتية اكثر من اثنين في المائة ، فكان الجواب ان النسبة انقلبت الى عكسها تماماً ، واذا بالامية

تنقرض انقراضاً تاماً من السكان (غير المخضرمين بالطبع) لان الاميـــة محرمة في العالم السوفياتي كله . وفي طشقند جامعـــة للعلوم العاليـة كلها ، الطب والهندسة والعلوم الطبيعية والفلسفة والتاريخ واللغات الاجنبية ، وفيها اكاديمية للعلوم يعمل فيها الف موظف منهم خمسمائة من اصحاب الدرجات العلمية العاليـة وفي هذه الأكادمية مكتبة ، عـــدد مخطوطاتها فقط خمسة عشر الفاً من جميع اللغات لا سيما اللغات الشرقية ، اغناها في اللغة الفارسيه . وقد التقيت في القسم العربي منها بابن سيناو الرازي والفارابي ووجدت مخطوطة فريدة لابن البيطار ترجع الى سنة ٨٧٣ « ادوية مفردة » لا اعرف انها توجد في مكتبة اخرى .

والاكاديميون يشتغلون لتطبيق علومهم في جميع نواحي الحياة العلمية والعملية . خـــذ مثلاً . ان النباتيين استطاعوا ان يزرعوا القطن الملون . وفي اوزبكستان اليوم ترى القطن الطبيعي الاخضر والاسمر . وهم جادون في زرع القطن من سائر الالوان . وقـــد وجـــدوا من حشائش البلاد حشيشة استخرجوا منها حامض النيكوتينيك الحاوي من الفيتامين المركب ما يعالجون به مرض « البلاكـرا » . ان العـــلم في نظرهم للتطبيق وليس للاشتغال بالنظريات فقط . وفي هذه المقاطعة التي تكثر فيها الفاكهة والتي يشبه مناخها مناخ لبنان ، يولون الزراعة اهتماماً علمياً خاصاً فليت مزارعينا تتاح لهم الفرصة للاخذ عن الطشقنديين دروساً يطبقونها في زراعتهم .

لقد دعينا الى مائدة الاكاديمية . فالتف حولنا عشرون استاذاً من رؤساء الفروع المختلفة . والقى اكثرهم خطباً دلت على سعة

اطـــلاعهم وعلمهم . وقد لفت نظري شغف الاوزبكيين المثقفين بالخطابة ، فقلت هي مزية شرقية . واذ ابينا على انفسنا الهزيمة في ميدان الخطابة فقد قبلنا المبارزة ولكني اقول صادقاً اننا غلبنا على امرنا . لقد كانت تلك المأدبة اشبه بحفلة عكاظية ، لعب فيها الخمر والفودكا والشمبانيا دوراً مرموقاً . واني ابيح لنفسي ان اوجه انتقاداً لاصدقائي اكاديمي طشقند ، وهو اهمالهم الزاوية الهيجينية في بنايتهم الطويلة العريضة ، اذ لا يجوز ان يلهيهم اشتغالهم بالعلم والابحاث عن الالتفات الى ناحية ضرورية من نظام المعيشة اليومية .

*

اتيح لنا ونحن في طشقند ان نحضر جلسة افتتاح مجلس السوفيات الاعلى للجمهورية الاوزبكية . فرأيت في مقاعد اعضائه عـــدداً من السيدات يقدر بالثلث . وبعد ان خطب رئيس السن بوشر بانتخاب الرئيس ونائبيه فكانت احدهما سيدة . اما الانتخاب فكان باجماع الاصوات لمرشح واحد لكل مركز . لاقتال ولا جدال ولا معارضة . وسأوضح هذه الامور في فصل خاص عن الديموقراطية السوفياتية .

على اني لا ارى بدأ من ابـــداء ملاحظة وهي ان في اثناء الخطب الـــتي القيت ، كان المجلس والجماهير الحاضرة تقف كلما ورد ذكر ستالين ويـــدوم التصفيق دقيقة او دقيقتين وكان عدد المرات التي وقفناها عشراً . قد يكون ذلك من باب الاقرار بالفضل لصاحب الفضل الاكبر في ذلك العالم الذي ادهش الدنيا ، ولكن لم استمرىء هذه الظاهرة ، وفي اعتقادي ان ستالين نفسه لا يستمرئها ولا يتطلبها . لقد مررت مراراً بساحة الكرملين

ودخلت الى هذا القصر الواسع الارجاء وهو عجيبة من عجائب الفن والعظمة ، فعجيب لقصر يسكنه اعظم رجل في الدنيا ولا يقف على بابه غير حارسين يجيزان لك الدخول حين ابراز بطاقة المرور. ان ما خبرته عن كثب في رحلتي هو ان ستالين معبود الشعوب السوفياتية كلها ، لا عن خوف وارهاب كما تقول الدعايات ، بل عن ثقة وايمان بقائد البلاد الذي يعيش في عرينه عيشة التقشف لاحياة الفخفخة والتدجيل ، يعمل عشرين ساعة من الاربع والعشرين ، لا بلاط ، ولا بطانة ، ولا امتيازات ، ولا احتفالات . مثال اعلى للعمل للاخلاص ، واسطورة من اساطير الزمان .

ستة ايام قضيتها في طشقند علمتني كيف تقفز الشعوب من حال الى حال .

الفصل العاشر

على بساط الريح الى مدينة الريح

التحام الريح والنار ـ باكو مركز الحركة الثورية ـ البترول عصب الحرب والعلم ـ « حاجي بيكوف » ـ غلبنا ثانية في الخطابة .

مع فجر ١٤ اذار ، يممنا وجهنا الى مدينة « باكو » عاصمة جمهورية ازربيجان . فقطعنا مسافة الفي كيلو متر في ثماني ساعات . ونمنا ليلتنا الاولى كما ينام الطفل ، والفضل بذلك لتعب السفرة اولاً وللفندق الجميل الذي نزلنا فيه ثانياً .

ان كلمة « باكو » تعني مدينة الريح ، وكلمة ازربيجان تعني ارض النار . لله من التحام الريح مع النار ، ما اشد هوله ، ! وهنا في مدينة باكو العاصمة ، وفي مقاطعة ازربيجان الجمهورية ، التحمت الريح والنار في اول عهد الثورة حيث كان « ستالين » يضرم النار و« كيروف » ينفخ بها الى ان هبت شرارة من باكو فأشعلت روسيا كلها . ومن اعلى قمة في المدينة يطل عليك تمثال ضخم اقاموه لكيروف ، الذي قتله التروتسكيّون ، تخليداً لذكرى بطل الثورة العظيم ،

ان باكو مدينة كبيرة وجميلة . سكانها مليون ومائتا الف . موقعها على شاطىء بحر « قزوين » وهي تشبه الى حدٍ كبير مدينة بيروت ، من حيث ابنيتها وشوارعها وجمال موقعها ، وهي مدينة البترول عندما تشرف عليها تطل عليك الآبار بعواميدها الناطحة ، وتفوح رائحة البترول الذي يستخرج منه الآن اربعة ملايين طن ، والمقدر استخراجه في نهاية مشروع الخمس سنوات بسبعة عشر مليوناً . هذه المدينة التي تقوم صناعتها على النفط ، والتي تتميز حياتها بخصائصه ومنتفعاته ، والتي تعمل معاهدها ليل نهار على درس منافعه ، ليس في الناحية الحربية والاقتصادية فحسب ، بل في جميع نواحي الحياة ، لا سيما في الناحية الطبية كما يجيء ذكره. هذه المدينة التي تحطمت على ابوابها جحافل الغزاة النازية ، هذه المدينة هي اليوم محطّ لانظار العالم وامـلٌ للنظام الانتاجي السوفياتي .

لقد كانت اولى زياراتنا في باكو الى معهد البترول الذي سمي باسم معهد « عزيز بيكوف » وهو احد الستة وعشرين قوميسيراً الذين اعدمهم الانكليز عام ١٩١٨ اثناء الحركة المضادة للثورة . وهو معهد من اكبر معاهد العلم في الاتحاد السوفياتي ، تدرس فيه جميع العلوم المتعلقة بالانتاج البترولي ، من جيولوجيا ، وكيمياء ، وميكانيك ، وكهرباء ، وعلوم طبيعية ، وهندسة ، ويجلس على مقاعد الدراسة فيه اربعة آلاف وخمسمائة تلميذ منهم الف وخمسمائة تلميذة ، يتلقون دروسهم على يد فحول الاساتذة ليخرجوا الى العمل في هذا الحقل المهم من الانتاج السوفياتي حقل النفط الذي هو

ركيزة من ركائز الحرب والسلم .

ان من يزور معهد البترول في باكو يرى فيه دنيا كاملة لا معهداً وحسب . فالى جانب قاعات الدرس المختبرات تجد مكتبة جامعة تشتمل على اربعمائة الف مجلد من مختلف اللغات ، يؤمها طلاب المعرفة من التلامذة وغيرهم من ابناء البلاد والأجانب ، والى جانبها نادٍ واسع يحوى كلما قد يخطر ببالك ومالا يخطر من اسباب اللهو والتسلية والرياضة على انواعها ، هذه قاعة السينما تشاهد على شاشتها اجمل الافلام ، وهذا مطعم للاساتذة والطلاب يغنيك عن الاكل في البيت او في السوق ، وهذه عيادة طبية ، ما رأيت أتقن منها وانظف ، موزعة اقسامها على تداوي المرضى ومعالجة الاسنان ، والمعالجة الفيزائية الطبيعية وهلمجرّا . واذا كنت ايها التلميذ او الاستاذ اباً لولد او اكثر ، او اذا كنت ايتها التلميذة اماً ، فهذه دار الحضانة وحديقة الاطفال تستقبلان الطفل فتسلمانه للممرضات ، تطعمه وتحممّه وتلعبه وتعزف له الموسيقى ، وتنيمه في اسرة قلما يوجد مثلها في أحسن البيوت ، حتى اذا جاء المساء اخذت الام طفلها معها الى البيت لتعيده معها في الصباح . لقد اعجبت بحديقة الاطفال هذه وسمّها ايها القارىء كما سميتها انا ، جنة الاطفال ، فايقنت عندئذ لماذا يتزوج الشبان والشابات في الاتحاد السوفياتي في سن باكرة . لم يبق الزواج عبئاً على الازواج . اذا احببت ايها الشاب ابنة واحببتك ، فتزوج واتكل على الحكومة قبل اتكالك على الله فقط . وبالطبع في هذا المعهد ، كما في كل معاهد العلم العالي ، يقبض الطالب معاش التلميذ القانوني مع اضافة المكافئات للمتوفقين .

وفي مدينة باكو يقوم معهـــد ثان هو احد المعهدين المخصصين للمعالجة الفيزائية والسحائية والبترولية (الثاني على البحر الاسود) لقد ارادوا ان يجعلوا من البترول وسيلة للطبـابة وتخفيف الآلام وليس مغذياً للمحركات والطيارات وملهباً للنار فقط . وفي باكو ارادوا ان يزيحوا عن النفط سمعته المخيفة أو على الاقل ان يخففوا من وطئتها ، فاقاموا هذا المعهد الطبي الفريد يعالجون فيه اكثر الامراض ولا سيما المزمنة منها بواسطة النفط ومشتقاته . يشتغل في هذا المعهد مائة طبيب ومهندس واكثر من مائتي ممرضة ومعاون ويلجأ اليه يومياً الفا مريض يتفنن العاملون فيه بطرق المعـــالجة المائية الخاصة بهـذه المنطقة والاتربة الموجودة فيها، ويقومون بتجارب واسعة حتى اني وجدت في احد مختبرات المعهـد استاذاً يعمل جاداً مع اعوانه لاستخراج خلاصة من النفط تؤثر في الاورام السرطانية بقصد تلقيح الجسم بالورم السرطاني والعمل على شفائه منه . وفي مختبره قفص كبير مملوء بالفئران التي يجري عليهـــا اختباراته . انه لمشهد مسل هذا القفص . الفـــئران تسرح في داخله ، هذه تركض ، وهذه تتململ من الألم ، وهذه تموت تحت نظرك . وقد شاهدت بعضها ملقحاً بورم سرطاني بسبب حقها بهذه الخلاصة البترولية . وكان الاستاذ يشرح لي نظريته بحماسة تشعّ من عينيه ! وهو يعقد الرجاء على التوصل الى ما قد يساعده على المساهمة في حل هذه العقدة التي حيرت العلماء والتي نسميهـا السرطان . اما معالجة الامراض الاخرى واكثرها على الاطلاق الامراض الروماتيزمية وامراض الجهاز العصبي فمداها لا حـدّ له .

وفي المعهد احصاءات مغرية لاصحاب هذه الامراض تفتح لهم ابواب الامل بالشفاء مما اصابهم وانزل بهم الشقاء والعذاب الطويل.

ان زيارتي لباكو ولازربيجان وما رأيته فيها من معالم المدنية والرقي والتقدم العلمي والفني والاجتماعي ادخل في قلبي روح الشفقة على شقيقتها ازربيجان الايرانية وعلى الازربيجانيين الايرانيين الذين يرتعون في مراتع العبودية والظلمة والجهل اشباعاً للمطامع السياسية الدولية ، فقلت بنفسي اترى السياسة تبلغ يوماً الى الادراك ان السياسة الصالحة لا تبني الا على القيم الانسانية ، أم تظل هي هي ، مطامع وشهوات واستثمار ؟

*

وهناك ظاهرة اخرى من ظواهر الحياة السوفياتية تتجلى لك في باكو ، تشاهدها اذا زرت الاوبرا او الفيلارمونيا. حضرت الاثنتين. ففي الاولى شاهدت مسرحية غنائية وضعها المؤلف الموسيقي الشهير « حاجي بيكوف » حامل وسام ستالين وعضو مجلس السوفيات الاعلى ، وكان يدير الجوقة « نيازي » صهر حاجي بيكوف ، وهو ايضاً حامل وسام ستالين فضلا عن اوسمة مختلفة ، وهو يعد الرابع بين رجال الموسيقى في الاتحاد. عنوان المسرحية « كور اوغلي » او ابن الاعمى ، ويدور موضوعها حول حالة ازربيجان في العهد القيصري واندلاع الثورة القومية فيها . لقد حضرت الاوبرا مرات عديدة في موسكو ولينغراد وطشقند ، ولكني اعلن بصراحة ان مسرحية « كور اوغلي » هذه اثرت في نفسي اكثر من غيرها . والسبب هو ان موسيقاها اقرب الى مفهومنا نحن الشرقيين من سواها . وهل

يخطر ببالك ايها القارىء ان في ازربيجان المقاطعة التي كانت لربع قرن مضى بلاداً امية جاهلة همجية ، هل يخطر ببالك ان ترى فيها اليوم هذا التفوق الموسيقي والتمثيلي يقوم به ممثلون وممثلات وموسيقيون وموسيقيات ازربيجانيون ، يرتدون الملابس الوطنية التقليدية الوهاجة ، ويتسابق الى مشاهدتها السكان من جميع الاعمار والحرف. اذا استغربت فعليك ان تحضر هذه الحفلات لترى العجب العجاب في شعب ارتفعت مقاييس حياته الى درجة قصوى من العلم والفن .وعندما تأملت بالجماهير التي حضرت الحفلة وقد قيل لي ان منهم من يحضرها للمرة العاشرة ، ادركت مدى التقدم والرغبة الموجودة في نفوس هذا الشعب للتلذذ في الناحية الفنية البهجة .

اما سكان باكو فاكثر من ثلثيهم من المسلمين ، والثلث الباقي ارمن وبعض اليهود . انما الدين عند اولئك لم يبق له ذلك الطابع الذي نعرفه نحن الشرقيين . فما قلته عن مسلمي طشقند ينجلي اكثر في مسلمي باكو ، وذلك لان باكو اكثر اختلاطا بالخارج من طشقند .

سألت سيدة ازربيجانية في مدينة باكو عن دينها ، وبالطبع لم يكن سؤالي هذا اهتماماً للامر بل استعلاماً عنه ، فقالت انها مسيحية متزوجة من مسلم ، توفي زوجها منذ اثنتي عشرة سنة وهي لم تزل امينة لذكراه ، تأبى ان تتزوج ثانية . ثم سألتها اذا كان بين المسلمات من تزوجت بمسيحي ، واذا وجد ، هل تتدخل الشريعة الاسلامية في امر تلك الزوجات كما يقضي الشرع ، فاجابت ، اما زواج المسلمات بغير المسلمين فهو قليل جداً ولكنه موجود

وهو يكثر تدريجا ، وقلما يتدخل الاب في امر زواج ابنته اذ ان الابنة متى بلغت سن الرشد اصبحت طليقة تشتغل مـــا تريد ، وتتعلم ما تريد ، وتتزوج وتعيش كما تريد ، والشرع الديني اسلامياً كان ام مسيحياً لا يقيد احداً في الاتحاد السوفياتي . لا شرع هناك الا الشرع المدني ، اما من اراد ان يحترم العقائد والتقاليد الدينية او ان يرضخ للشرع الديني ، فله ذلك ما دام هـــذا لا يتعارض القوانين المدنية ، ولكن اذا تعارض هذا وذاك ، فالشرع الديـــني لا قيمة له بنظر الدولة ، اذ ان جميع الشرائع غير المدنية في النظام السوفياتي ذهبت مع الريح .

وكالعادة التي الفناها في هـذه الرحلة ، ودعتنا مدينة باكو بحفلة شيقة اقامها محافظ المدينة وحضرها وزير الخارجية وعـدد من قادة الفكر والعلم والطب والموسيقى والتمثيل من الجنسين ، وجلهم من حملة وسام ستالين ، زاحمت فيها طلاقـة الكلام لذة الشراب والطعام . مائدة سخية ، ومباراة خطابية وشعرية باللغات الروسية والازربيجانية والعربيـــة والفرنسية والانكليزية ، تنتقل من فم الخطيب الى اسماع الحاضرين على لسان شاب روسي عبقرى قـام بدور الترجمان ، استظهر فيها اصـدقاؤنا الازربيجانيون واظهروا علو كعبتهم في الشعر والخطابة والعلم مما اسجله لهم في هذه الصفحة شكراً وتقديراً .

الفصل الحادي عشر

« بين الديموقراطيتين »

التفسير القاموسي للديموقراطية ـ اختلاف التفسير بين السوفيات والانكلوسكسون ـ ديكتاتورية الحزب الواحد وديكتاتورية الاكثرية ـ مجلس السوفيات الاعلى ـ زعامة ستالين ـ الحزب الشيوعي في روسيا ـ الكومسومول ـ كيف يفهمون الديموقراطية ـ درس عن الامام علي ـ الديموقراطية والرأسمالية لا تأتلفان ـ الديموقراطية الديكتاتورية .

تركت موضوع الديموقراطيـــة السوفياتية حتى انتهيت من وصف مشاهداتي ، لانه موضوع شائك ، وهو يحتاج الى شيء من الايضاح والتحليل . فقد اكتفيت في الفصول السابقة بوصف ما رأيت في الاتحاد السوفياتي ، وما اخذته عن السنة الذين اجتمعت بهم ، وهم كثيرون ، ومن مختلف الطبقات . ولا اكتمك ايهـــا القارىء اني تغلغلت في اكثر الاوساط ، وتحدثت الى كثيرين مـــن الرجال ، والى الكثير من النساء بغيـــة التعرف الى دخيلة الحياة السوفياتية لا ظواهرها فقط . وقـــد كنت

ادون في مذكراتي الحوادث حتى الصغيرة منها لكي اكون اميناً في نقلها الى قرائي . وقد سعيت في الفصول السابقة ان اتحاشى على قدر الامكان اي تعليق . اما في هذا الفصل فلا بد من الدخول في باب التحليل ، ولربما في باب الفلسفة ، فعفوك يا اخي على ما قد يجيء مخالفا او مطابقا لعقيدتك او تفكيرك . فخذمني هذا الفصل بنية صافية ، ولا تحرمني المعذرة اذا اخطأت ، ولا تبخل علي بالتصويب اذا اصبت ، فكلانا ننشدالوصول الى الحقيقة لنخدم الغاية التي تنشدها الهيئة الاجتماعيه ، الراغبة في توطيد السلام في العالم اجمع .

*

اذا رجعنا الى القاموس . نجدان كلمة ديموقراطية تعني حكم الشعب للشعب . وعلى هذا التفسير قد تسألني اذا كانت الدنيا السوفياتية هي دنيا الديموقراطية ام لا . ولكن الديموقراطية ليست كلمة يفسرها القاموس ،انما هي مفهوم من مفاهيم الحياة العملية والواقعية ، وما ينتج عنه من خير للانسان بمفرده ومجموعه ، وما يرافقه من تقدير للقيم الروحية والمادية فيه ، واقرار الانسان بحق غيره ، والسماح له به ،وعدم التعدي عليه ،لا قصداً ولا عن غير قصد . فهل الاتحاد السوفياتي بلد ديموقراطي ؟

يقول الانكلوسكسون ، واسمح لي ان اقسم العالم الى جبهتين انكلوسكسونية وسوفياتية ، كما هو الواقع ، يقول الانكلوسكسون ان الاتحاد السوفياتي ليس على شيء من الديموقراطية ، ويقول السوفيات انهم هم وحدهم الديموقراطيون ، وان الديموقراطية

الانكلوسكسونية هي ديموقراطية لفظية لا واقعيـــة . وهذا الاختلاف في التفسير يجر الجبهتين الى التناحر ، وقد يجرّ العالم كله الى الاشتباك . فأين هي الحقيقة ؟

قلنا ان الديموقراطية هي حكم الشعب للشعب، يعني ان الشعب هو الذي يحكم نفسه عن طريق انتخاب حكامه . وهؤلاء الحكام يحكمون الشعب لمصلحته افراداً وجماعات . وهنا وجه الاختلاف بين الجبهتين او بالاحرى بين مفهوم الواحدة ومفهوم الاخرى .

اذا اخذنا النظرية الانكلوسكسونية رأينـا ان القسم الاول من التفسير القاموسي يطغى على القسم الثاني منه ، يعني ان هذه النظرية ارتكزت على مبدأ حكم الشعب ، اكثر مما ارتكزت على الحكم لمصلحة الشعب بكل افراده ، اذ هي خولت الاكثرية ان تحكم الاقلية عن طريق الانتخاب . ولهذا نرى ان الاحزاب في الدول التي تمثل هذا النوع من الديموقراطية تتناوب الحكم عندما يصبح حزب الاقلية حزب الاكثرية . وفي هذا ما فيـــه من ديكتاتورية الحزب الحاكم ومن تحكم الاكثرية بالاقلية ، وهو ما حدا الفيلسوف الانكليزي الشهير « سبنسر » الى أن يوسم حكم الاكثرية بالخرافة السياسية (اقرأ كتابه « الرجل ضد الدولة »).

اما النظرية السوفياتية في الديموقراطيـــة ،فترتكز على القسم الثاني من التفسير القاموسي، يعني انها تقول بالحكم لمصلحة الشعب أكثر مما ترتكز على الحكم بواسطة الشعب وذلك عن طريق حزب واحد في الدولة يمثل الفكرة التي يقوم عليها النظـــام ويعمل على تطبيقها لمصلحة الفرد والمجموع .

فاذا قارنا بين النظريتين ، تبين لنـــا ان كلتيهما قائمـــة على ديكتاتورية حزب شعبي ،مع هذا الفارق الوحيدوهو ان في النظرية الاولى تتناوب هذه الديكتاتورية الاحزاب المختلفة بينما في النظرية الثانية تبقى الديكتاتورية بيد الحزب الواحد .

يقول السوفيات، ان تناوب ديكتاتورية الحكم بين الاحزاب يخلق البلبلة والفوضى ،ولا سيما ان الانتخابات الحزبية هي دائماً مسرح للتقاتل والنكايات والتشويق ، عن طرق ليست على العموم في سبيل المصلحة العامة . ويضربون الامثال على صحة نظريتهم بما يحصل في البلدان ذات الاحزاب المتعددة ، وما ينفق عليها من الاموال لانجاح مرشحي هذا الحزب او ذاك ، حتى اذا نجح احدها حكم البلاد لمصلحته ومصلحة افراده، غير ملتفت الى ما قد يصيب حزب الاقليـة من الغبن . وعـــلى ذلك يرون في ديكتاتورية الحزب الواحد ضمانة اكبر لمصلحة الامة بمجموعها وبافرادها ، شرط ان يكون هذا الحزب ممثلاً للطبقات الشعبية كلهـــا ومتصفاً بالصفات المؤهلة للقيادة ، من حيث نزاهة اعضائه واخلاصهم وعلمهم، وقبولهم بالتضحية ورضى العامة عنهم . وهذا ما تعنى بـه الديموقراطيـــة السوفياتية كل العناية .

ويقول الانكلوسكسون بدورهم ، ان ديكتاتورية الحزب الواحد لا تختلف بشيء عن ديكتاتورية الفرد ، وربما فاقتها شراً ، اذ هي تستبدل طاغية واحداً بطغـــاة عديدين لدى كل منهم من المطامع ما يجعل من العامة آلات مسخرة لهم . فالتطاحن الحزبي يوجب على الاحزاب ان تسعى للتسابق العلمي والاخلاقي والتنظيمي

والوطني ، فينتج عن هذا التسابق خير اكثر للمجموع ، فضلاً عن ان ديكتاتورية الحزب الواحد تطعن الحرية الشخصية في الصميم .

ولكن ما لنا وللنظريات ، فلننظر الى واقع الحال بين الديموقراطيتين .

*

مما لا شك فيه ان طريقة الحكم في روسيا السوفيانية تقوم على ديكتاتورية الحزب الشيوعي الذي لا يزيد عدد اعضائه العاملين على سبعة ملايين عضو من مائتي مليون . ويجدر بي القول ان سكان روسيا باكثريتهم الساحقة ، اذا لم اقل باجماعهم ، يماشون سياسة الحزب ومبدئه ، غير ان القول الفصل هو بيد الحزب . هو الذي يولي السلطة للحكومة وللمجالس كلها دون ان يحصرها بيد اعضائه وحدهم . فمن اعضاء مجلس السوفيات الاعلى مثلاً من هم خارج الحزب ولكنهم يؤيدون سياسته ويؤيدهم . فالحزب يرشح النواب ، وفي جملة ما يعنى به في هذه العملية ، انه ينتقي المتفوقين في ميدان عملهم ، فينتخب هؤلاء المرشحون بالاجماع او بما يشبه الاجماع . ولذلك ترى في المجلس من لا يتعاطى السياسة مطلقاً . هذا طبيب تفوق في عمله وفي خدماته . وهذا مؤلف في الأدب او في الموسيقى . وهذه ممثلة . وتلك شاعرة ، وذاك عامل « ستكانوفيست » . وذلك فلاح كثير الانتاج . فكأن الحزب ، وهو يشعر بما لاولئك من الفضل يتخذ من ترشيحهم للنيابة وانتخابهم لها وسيلة لمكافئتهم . وانه ليبدو لي ان مجلس السوفيات الاعلى هو هيئة منتخبة على الشكل الذي وصفت ،

لاقرار المشاريع التي تضعها الحكومة بتوجيهات الحزب ، فالمجلس لا شأن له في وضع المشاريع وانتقادها ، انما هو ذو صلاحية بنقد الوزارة المختصة اذا ما رأى منها تقصيراً بحسن التنفيذ . فقد حمل المجلس مرة على وزير من الوزراء (اظنه وزير المعارف) لانه تقاعس في تنفيذ المشروع الموضوع لوزارته على الوجه الصالح ، فاضطر الوزير للاستقالة من مركزه . فاذا سمينا الاشياء باسمائها ، نستطيع القول ان مجلس السوفيات الاعلى او المجلس النيابي اذا شئت ، هو مجلس مراقب على سير الامور لا مجلس تشريعي . ان التشريع هو من صلاحية الحكومة او مجلس « التبريزديوم » الذي يعمل بالتوجيه الذي يضعه الحزب بواسطة لجنته التنفيذية .

اما مجلس « البريزيديوم » فهو مؤلف من رئيس هو رئيس مجلس السوفيات الاعلى ، ومن ستة عشر نائباً للرئاسة ، هم رؤساء المجالس السوفياتية في الجمهوريات السوفياتية ، ومن ثلاثة وثلاثين عضواً منتخبين من نواب المقاطعات السوفياتية كلها . فهذا المجلس الذي غالباً ما يكون اعضاؤه كلهم من اقطاب الحزب الشيوعي ، يرسم السياسة العامة كما يوجهها الحزب بالطبع ، فتقرها المجالس النيابية بالاجماع .

قد يقال ان هذه القواعد التشريعية ليست على شيء من الديموقراطية التي تقضي بان يضع المجلس النيابي نفسه القوانين او تضعها الحكومة وهو يتناقش بها فيقر ما يرتأيه ويرفض ما لايريد لانه هو الذي ينوب عن الشعب متى كان منتخباً من الشعب والذي يقول هذا القول يتهم الشارع ، ان فرداً او افراداً ،

بالديكتاتورية التشريعية . ولكن المشترعين هناك يعمدون الى طريقة خاصة في استمزاج رأي الناس بالشريعة التي يسنونها او التي ينوون تحريرها .

خذ مثلاً . عندما اخذوا في روسيا بنظام الكولخوز او المزرعة التعاونية بعد ان صادرت الدولة الاراضي الاقطاعية ، ارادوا ان يتعرفوا الى اراء الفلاحين ، فعقدوا مؤتمراً عاماً من اولئك او من اصحاب الرأي والخبرة منهم . وحضر بينهم ستالين نفسه . وكان البحث يدور حول كيفية تنظيم الانتاج الكولخوزي وما يجب ان يرافقه من التنظيم الاجتماعي والتنظيم الصحي والتنظيم الاداري في الكولخوزات . وقد كان لهذا المؤتمر تأثير كبير في الجهاز الكولخوزي القائم الآن . ومن حين الى آخر يعقدون المؤتمر الكولخوزي هذا ليروا اذا كان هناك ما يجب تحويله او تحويره . وهذه القاعدة هي تبعاً للرأي الذي ابداه ستالين ، من ان الحكومة التي لا تتصل بعامة الشعب وتتعرف الى ارائه هي حكومة غير لائقة بالحكم .

وهاك مثلاً آخر :

في السنوات الاولى من عهد الثورة اباحت الحكومة الاجهاض لانها رأت انه لا يجوز تحريم الاجهاض قبل ازالة مسبباته . فهي لا تستطيع ان تقول للمرأة المعدمة عليك ان تحافظي على ثمرة بطنك ما دامت هذه المرأة لا تقوى على اعالة نفسها واعالة وليدها ، كما انها لا ترى من الحكمة ان تقضي على العائلة بالفقر والنكد العائلي قبل ان تهيء لها اسباب العيش والحياة . واذا ولدت امرأة

غير متزوجة طفلاً فما ذنب الولد حتى ينبذه المجتمع . وبقيت الحال كذلك الى عام ١٩٣٦ ، عندما قضى النظام على البطالة قضاء تاماً ، وعندما اوجدت الدولة جميع الاسباب لكي لا يكون الولد عالة على ابيه وامه . وعندما قضى التشريع السوفياتي بان يعامل الطفل المولود عن غير طريق الزواج كالطفل المولود من زوجين شرعيين . فلما تمّ كل هذا رأت الدولة ان تستشير الناس في امر تحوير شرعة الاجهاض . وظلت حملة الاستشارة قائمة في الصحف والمحاضرات مدة سنة كاملة . واتيح لكل شخص رجلا كان ام امرأة ان يدلي برأيه ، حتى اذا تجمعت لدى الحكومة الآراء ، ووجدت ان الاكثرية جاءت بجانب المنع ، اصدرت شرعتها الاخيرة في عام ١٩٣٦ وهي تقضي بان الاجهاض جريمة يعاقب عليها القانون .

على هذين المثالين يقاس الاختيار الشعبي لقوانينه الداخلية وسياسته النظامية . أما السياسة الخارجية فهي تبقى رهينة التوجيه السياسي الذي يضع خططه اقطاب الحزب . واذا كان لستالين الكلمة الاولى فهذا لا يعني ان ستالين وحده هو المطلق بها . انهم يدركون عبقرية هذا الرجل العظيم في السياسة وفي الادارة وفي التنظيم . وهم يحترمونه حتى العبادة ، كما ان ما من احدٍ يشك لحظة في إخلاصه وتضحيته ، وقد اعطاهم الامثلة العديدة عليها في حياته الشخصية ، وفي تقشفه في المعيشة ، وفي انزوائه عن المظاهرات والفخفخات ، وفي انكاره ذاته في سبيل بلاده وعقيدته . فلا غرو اذا احلّوه المحل الاول واحاطوه بجميع ضروب الاحترام .

انه بعد لينين باني مجدهم ورمز عالمهم .

قبل زيارتي الى موسكو بوقت قصير ، تزوجت ابنة ستالين التي يحبها والدها حباً ابوياً لا حدّ له . فلم يعرف احدٌ بزواجها الا عائلتها الخاصة ، ولم تقم لها الاحتفالات ، ولم تذكر عن زواجها اية جريدة في موسكو . ابنة ستالين تزوجت كما تتزوج اية ابنة في الاتحاد السوفياتي ، ولم يعل من شأنها كونها ابنة ستالين . لقد رافقتها محبة ابيها العظيم ومحبة زوجها ، وكفى الله المؤمنين شر القتال .

في اشد ايام المحنة التي حلّت بروسيا ، وعندما اصبح الالمان على بعد اربعة عشر كيلومتراً من موسكو ، وعندما اخليت العاصمة من الديبلوماسيين ، اعتصم ستالين في الكرملين . لا بل غادره الى الجبهة ، الى صف المحاربين في المقدمة ، فكان وجوده بين الجنود من اكبر العوامل التي قضت على الغزاة . لقد كان يحدثني احد الديبلوماسيين الاجانب فقال لي ، ان معركة موسكو لم تنصف ، وسيظهر التاريخ ان معركة موسكو بقيادة ستالين نفسه وبوجوده في معمعتها كانت هي المعركة الحاسمة .

أيعاب الشعب الروسي اذن اذا حفظ لهذا القائد المركز الذي يحفظه له ، واذا مشى وراءه في طريق المجد التي رسمها وعبدها له ؟

*

ولا اجد لي بداً من تعريف القارىء بالحزب الشيوعي المسيطر على النظام في الاتحاد السوفياتي . هذا الحزب الذي آليت على نفسي ان اتحرّى مبادئه وانظمته والمسلك الذي يسير عليه اعضاؤه والواجبات المفروضة عليهم والحقوق التي يتمتعون بها ، اذا كان

هنالك من حقوق . وقد يخطىء القارىء اذا كون لنفسه فكرة عن الحزب الشيوعي في روسيا من الاحزاب الموجودة خارج روسيا . فبعد ان حل الكومنترن ، اصبحت الاحزاب الشيوعية في البلدان الاجنبية مطلقة الحرية في انظمتها واهدافها . واذا كانت هذه الاحزاب تظهر ميلاً للشيوعية الروسية ، واذا كان الاتحاد السوفياتي راضياً كل الرضى عن وجود هذه الاحزاب ، فهذ لايعني ابداً ان الاتحاد السوفياتي مسؤول عنها ولا هي فروع منه . وانه ليخيل الي ان الاتحاد السوفياتي ، ككل الدول العظمى ، يرغب في ان يكون له انصار في العالم لمقاومة العداء الذي يشعر به في الدول الاخرى . وهو يرى في الاحزاب الشيوعية سلاحاً له ضد الدعايات الاجنبية . وهو يتساءل لماذا تبيح انكلترا واميركا مثلا ، لنفسها الاستناد إلى مناصرين في البلدان القريبة والبعيدة ، بينما هما تقيمان الارض وتقعدانها على من يوالي روسيا ولا يناصبها العداء .

اما الحزب الشيوعي في روسيا، فهو كما قلت لا يضم في الحاضر اكثر من سبعة ملايين عضو عامل . وذلك لان الشروط المفروضة على طالب الدخول ليست شروطاً سهلة . على العضو ان يعتنق الفلسفة الماركسية حرفاً بحرف ، وعليه ان يتقيد بدستور الحزب ويقوم بجميع ما يفرضه عليه من الواجبات. ولم يتبين لي من تحرياتي ان عضو الحزب الشيوعي له من الحقوق اكثر مما لغيره . فلا امتيازات له في العمل ولا في المعيشة ، وليست الطريق مفتوحة له اكثر من غيره الى الطموح والتقدم . ان واجباته اكثر ممن ليس عضواً، واما حقوقه، فهي هي اللهمّ الا كونه عضواً في الحزب الحاكم.

لقد شبهت الحزب الشيوعي في روسيا بالمنظمة الجزويتية ، من حيث التنظيم لا من حيث الغايات والاهداف والمبادىء . تشبيه عجيب لكنه واقعي . فالعضو في الحزب الشيوعي مجبر على تنفيذ مقررات الحزب مهما كان في تنفيذها غبن عليه او تضحية منه . اذا لم تكن عضواً ، فقد يكون من حقك ان لا تقبل بالعمل الذي اعطيته . ومن حقك ان تختار مركز عملك ونوعه ، ولكن اذا كنت عضواً ، فعليك ان تذهب الى حيث يقضي عليك الواجب . انك جنديّ تخدم حيثما تطلبك الخدمة .

اذا طمعت بعضوية الحزب ، فلا يكفي بان لا تكون امياً ، اذ ان لا امية في روسيا السوفياتية ، بل يجب ان تكون على درجة ما من الثقافة ، وعلى درجة أعلى من حسن الاخلاق .

والعضو الذي تظهر منه مظاهر الفساد الخلقي ، جزاؤه الطرد المحتوم . والامر الذي سمعته واستغربته ، وارويه هنا على ذمة قائله ، ان الطلاق الكيفي الذي لا يقوم على اسس جوهرية ، هو من الاسباب المانعة لعضوية الحزب . ان الحزب الشيوعي هو الحزب الحاكم . ولذلك يريدون ان يكون فيه من الجدارة العلمية والادبية والاخلاقية ما يؤهله للحكم .

في اثناء وجودك في روسيا قد تلتقي بفرق من الشباب تبدو على وجوههم دلائل الصحة والعزم والاقدام . هؤلاء هم «الكومسومول» . انهم شباب المستقبل ، والواقفون على عتبة الحزب الشيوعي ، يربونهم التربية اللائقة بالحزب ، يحافظون عليهم من كل دنس ، ويمرنونهم على الاضطلاع بالواجبات ، انهم عصب

النظام ومحط آماله . فالشاب من هؤلاء قلما ينحني امام الشدة ، ولا يقبل بالهزيمة امام الصعوبات من اية ناحيـــة اتت، هم في مدرستهم متفوقون ، وفي اعمالهم « ستكانوفيست ». في عقيدتهم عناد وصلابة، وفي حياتهم كلها قوة وجبروت ،لا يستكينون الى الراحة ،ولا يحجمون عن العمل والتضحية . فـــاذا اراد شاب في روسيا ان يتفاخر ، يكفي بان يقول : « انا كومسومول » .

*

والآن لنعود الى الجواب على السؤال . هل الاتحاد السوفياتي بلد ديموقراطي ؟

بعد ان حللّنا التفسير القاموسي لكلمة ديموقراطية ، وبعد ان وصفنا طريقة الحكم هناك ، وبعد ان اتينا على مشاهداتنا المتعددة بما يتعلق بالمعيشة والعمل والتأمين الاجتماعي والتعليم والطبابة والاسرة والدين وغيرها وغيرها ، نستطيع القول ان الاتحاد السوفياتي بلد ديموقراطي على طريقة تختلف عن الطرق المتبعة في البلدان الاخرى. وربما كانت طريقته اقرب الى الواقعية من غيرها .

هم لا يقرون بديموقراطية تسمح لانسان ما بان يعتدي حق على غيره . وهم لا يقرون بديمقراطيـــة تبيـــح للفرد ان يستثمر فرداً آخر . وهم يعجبون لديموقراطية تسد باب التفوق والطموح في وجه من لا تساعده مادياته على ولوجـــه . وهم يضحكون من ديموقراطية لا تقضي على الخوف من المرض ومن الفقر ومن الجوع . وهم لا يستطيعون ان يفهموا ديموقراطيـــة تبيح لزيد ان يربح من عمرو وبكر وخالد الالوف والملايين لان الظروف والاستثنآت

التي غالباً ما تكون من صنعه ، فسحت له مجال الربح ، فينعم به هو واولاده واولاد اولاده بينما عمر وبكر وخالد يعملون ويكدحون خائفين من غدهم وغير امينين على مستقبلهم ومستقبل عيالهم .

ان الديموقراطية بنظر السوفيات لا تأتلف مع الاستثمار ، لان الاستثمار من شأنه ومن اسباب وجوده ، ان يمنع المستثمر (بفتح الميم) من الحصول على حقوقه الطبيعية في الحياة . فهو لا يستطيع ان يتطبب من مرضه كما يتطبب الثري ، وهو لا يستطيع ان يرسل ابنه الى المدارس العالية التي يدخلها ابن الغني ، حتى لو كان الاول عبقرياً والثاني جاهلاً . وهو محكوم بحكم الواقع ، بالعبودية للظروف التي يسيطر عليها سيده ، فاما ان يرضخ للانظمة المفروضة من قبل المستثمر او من السلطة التي تبيح الاستثمار ، واما ان يناضل في سبيل حقه ضد قوة ، اين منها قوته . هذا ، فضلا عما يتغلغل في صدره من روح الحقد والحسد والنقمة .

ولكن الديموقراطية الرأسمالية تقول ، ان ما يربحه الفرد او الشركة تأخذ منه الدولة قسما يكثر او ينقص حسبما تقضي بها انظمتها المالية ، وما تأخذه الدولة تصرفه على المشاريع العامة ، فيستفيد المجموع من ارباح الفرد ، ناهيك عن الخدمات التي يقدمها الرأسمالي للناس من تشغيل اليد العاملة والتبرعات الانسانية التي يقوم بها . فلماذا تريد الديموقراطية السوفياتية ان تحرم الفرد حق الاستثمار ، فتقف حائلاً بوجه الطموح الشخصي ووفرة الانتاج وجودته عن طريق المزاحمة والاجتهاد . ؟

فتجيبها الاشتراكية السوفياتية بالقول : ان الانسان لم يزل انساناً ، وهو لم يعلُ بعد الى ما فوق الانسان ، فمن المحال على السليقة الانسانية ان تتجرد عن مطامعها ، ومن المحال على الانسان ان ينصف اخاه الانسان انصافه لنفسه . فلا يجوز والحالة هذه ان تكون حقوق الانسان الطبيعية رهينة ارادة غيره . ومن الآن الى ان تتغير سليقة الانسان ، يجب ان تبقى الدولة او السلطة المسؤولة هي وحدها صاحبة الحق بالاستثمار وتوزيع الحقوق بين الناس . فالدولة تشعر بواجبها اكثر مما يشعر الافراد المختلفو الاغراض والاهواء والمطامع ، وانه لأسهل ان توجد سلطة واحدة مسؤولة من ان توجد مائة او الف رجل او شركة مسؤولين ، وان ما تقتطعه الحكومات من ارباح المستثمرين لا يمنع من ان يملك رجل واحد سبعمائة مليون دولار ربحها على حساب ملايين العمال والفقراء الذين لا يزالون محتاجين الى ضروريات العيش . اما تمنين الاثرياء والمستثمرين للناس بتشغيل اليد العاملة وبالتبرعات فلا يجيب عليه السوفيات باكثر من السخرية لانه من باب التنازل عن القليل لتجميع الكثير . وهم يشجبون هذه الفروقات المتباعدة والتي لا تقوم على واقعية الفرق بالكفاءات ، انهم ينكرون على اي انسان ان تتيح له الفرص والظروف والقوانين الرأسمالية ليعيش عيشة الترف بينما هذه الفرص والظروف والمناسبات نفسها تقضي على غيره بالحرمان والخوف الدائم من الفقر والمرض والجوع فكأني بهم يأخذون بقول الامام علي : « ما رأيت نعمة موفورة الا والى جانبها حق مضيع » .

أما ان يكون القضاء على الاستثمار قاضياً على الطموح فهذا ما يضحكهم . فالطموح المالي بنظرهم ليس طموحاً بل هو طمع وجشع ، فهم لا يستسيغونه ، ولا يفهمونه ، ولا يبيحونه . ان الطموح ، بفلسفتهم ، هو ما يتوقف على الكفاءة الفكرية والعملية والاجتهادية، لا على تجارة رابحة في حرب ، او على امتياز استثماري اعطي لشركة ، او ازمة اقتصادية تستغلها اقلية ضئيلة وتنوء تحتها اكثرية ساحقة .

ان الديموقراطية السوفياتية تفاخر بانها قضت على الخوف من الغد . فلا بطالة في عالمها ، ولا اهتمام بمرض ، ولم يبق من لزوم لحفظ القرش الابيض لليوم الاسود . ان تبييض السواد هو من واجب الحكومة وهو من الحقوق المفروضة عليها تجاه الفرد ، وهي تقوم به على اكمل وجه . انها تقول للفرد ، نم في المساء مطمئناً فانا اضمن لك الغد ما دمت قائماً بواجباتك .

واذا استثنينا الطموح المالي ، فبوسعنا القول ان الاتحاد السوفياتي موطن الكفاءات . ما من قوة تستطيع ان تقف في وجه صاحب الكفاءة ، كما ان ما من قوة تستطيع ان ترفع من لا كفاءة له . ليس للمحسوبية ذكر في قاموسها. اهليتك وكفائتك سلاحٌ بيدك تشق به طريقك الى أعلى الذروة . اما سبل الطموح فمفتوحة امامك على مصاريعها . وقد لا اغالي اذا قلت انك تجد في العالم السوفياتي من التفوق العلمي والطبي والادبي والفني والانتاجي ما قد يتعذر وجوده في غيره . فالمال لم يعد ميزاناً للحياة ولا مقياساً للشخصية . الدنيا دنيا فكر وعمل لا دنيا مال وثراء.

هذه هي ديموقراطيتهم . واني اجيز لنفسي بان اطلق عليها اسم « الديموقراطية الديكتاتورية » ،عفوك ايها القارىء، عن هـذا الجمع بين الضدين . انهما ضدان لفظيان . ان الحرية الشخصية مقدسة بنظرك ونظري ، ولكن الحرية الشخصية اذا انطلقت على هواها اصبحت فوضى لا حرية . فكما انك لست حراً بان تمتنع عن التلقح بلقاح الجدري مثلا لان حريتك هذه مجلبة لضررك وضرر غيرك ، وكما انك لست حراً بان ترمي اقذارك في الشارع لتسمم بها غيرك ، وكما انك لست حراً في الاعتداء على حرية الغير ،هكذا انت لست حراً في الحكم على مدى الحرية التي تبيحها لنفسك . ولا تعترف بها لسواك . ان حريتك الشخصية ايها الانسان مقيدة بحرية اخيك الانسان . فان اجزت لنفسك ما لا تجيزه له ، فهناك المهيمن الاكبر ، السلطة موزعة الحقوق بلا تحيز ولا محسوبية . واني مخلص عندما اقول ان هذه السلطة تقوم بواجبها بدقة ونزاهة وتجرد واخلاص وحزم .

لقد وصفت لك ،ايها القارىء العزيز، كيف يفهم العالم السوفياتي الديموقراطية وكيف يطبقها . بقي عليك ان تصدر حكمك اذا كان الاتحاد السوفياتي بلداً ديموقراطياً ام لا .

الفصل الثاني عشر

بعد العودة

الوداع في جمرك باكو . ثلاثة اسئلة وثلاثة اجوبة .

في صبيحة ١٨ اذار ودعنا الاتحاد السوفياتي في جمرك باكو . فابت هذه الدائرة الا ان تترك معنا اثراً من صلابة نظامها وتيقظها الى تنفيذ قوانينها بدقة واصرار ممتزجين باللطف والايناس ، دون ان يمنعها لطفها واياناسها من التشبث بدقتها واصرارها . فبالرغم من كوننا بعثة ثقافية رسمية ، مدعوة من قبل مؤسسة سوفياتية رسمية ، وبالرغم من وجود ممثل هذه المؤسسة معنـــا ، فالادارة الجمركية لم تتنازل عن شيء من الواجبات المفروضة عليها . فالنظام في الاتحاد السوفياتي لا يقبل شفاعة ولا يتأثر بمحسوبية او نفوذ . فعندما كان المفتشون والمفتشات يقلبون محتويات الحقائب ، وهم يبتسمون للمشقة التي كنا عرضة لها ، والتي لم نألفها نحن الذين تعودنا ان نرى للشفاعات مفعولها السحري ، ادركنا قيمة النظام في بلاد لا تتهاون ولا تتهادن في التيقظ والحذر ، حتى ممن ترى فيهم اصدقاء لها ، فما ادراك لو هي عرفتهم اعداء . والذي كان يهتم له المفتشون بالدرجة

الاولى ، الكتب والمطبوعات والنشرات ، وهذا باعتقادي نتيجة لما يلمسه العالم السوفياتي في العالم الخارجي من روح العداء له ولما يعانيه من حملات الدعاية التي يشنها اخصامه لتشويه سمعته وتقويض مدنيته . فاذا هم ارادوا ان يطمئنوا الى نزاهة الاقلام ، كما تبين لنا من جمرك باكو في اثنـــاء دخولنا اليه وخروجنا منه ، فلانهم يقاسون من حرب الاقلام ما قاسوه في اثناء القتـــال من حرب المدافع والطيارات والويلات . ولذلك هم يجابهون هذه الحرب كما جابهوا تلك بصلابة وعناد . فالحرب حرب ، أكان سلاحها السيف ام القلم . والروس لا يهادنون في حروبهم ما لم ينالوا الظفر ، وعندئذ يطمئنون .

ولكن بالرغم من ذلك ، وبالرغم من ساعة شاقة قضيناها مع مفتشي جمرك باكو ، فقد ودعنا الاتحاد السوفياتي بذكرى طيبة لما غمرنا به هذا الشعب الكبير من الضيافة العامرة ولما اوحاه لنا من موجبات التقدير والاحترام والاعجاب .

*

اما الآن ، وبعد ان عدت الى موطني ، وتوالت علي الاسئلة عن هذا العالم الجديد وعن الحياة في مجتمعه وعن ملابساته وغوامضه ، فقد رأيت ان اضع هذا الكتاب عن مشاهـــداتي هناك . وفي الفصول السابقة ما فيه الاجابة على كثير من الاسئلة . بقي علي ان اجيب عن سؤالات ثلاثة القيت علي كنتيجة لاختباراتي في هذه الرحلة . وهذه السؤالات هي :

اولا – هل النظام السوفياتي الاشتراكي في روسيا متين الاركان

ام ان هناك ما يهدده بالتفسخ والانحلال ؟

ثانياً — هـل ان النظام السوفياتي في روسيا يمكن تطبيقه في غير روسيا ؟

ثالثاً — هل شعرت بان في الاتحاد السوفياتي عزماً على فرض نظامه على العالم عن طريق القوة ، او بكلمة اخرى هل تعتقد ان الاتحاد السوفياتي يفكر بأثارة حرب لبسط نفوذه ونظامه في العالم ؟

فاجابة لتشوق السائلين ،ارى من الخير ان اقتحم هذا الباب بالرغم من مأزق ازج نفسي به ، وبالرغم مما قد يثير من التعاليق وربما الاتهامات ولكني لم اتعود ان ابالي لتقولات مغرضة او مثيرة ، ما دمت مطمئناً الى عقيدتي ، وما دمت لا اتوخى الا رضى ضميري . فحسبي ان اقوم بخدمة للحقيقة لعل من وراءهـــا خدمة لوطني وللعالم اجمع .

١ — الجواب على السؤال الاول

لا شك ان النظام الاشتراكي فرض على روسيا فرضاً في اول عهد الثورة ، عندما كانت روسيا بيد طبقة من الذوات يحكمونها حكماً اقطاعياً لمصلحتهم دون مصلحة العامـة التي كانت تشكل خمسة وتسعين بالمائة من السكان . ولا شك ايضاً ان قسما من العامة نفسها كانت توالي هذه الطبقة الممتازة اما عن خوف منهـا او عن تشويق او عن طريق النفوذ الديني الذي كان له اثره الفعـــال في الشعب الروسي ، المشهور بتدينه ،والذي كان يعتقد بان خروجـه عن موالاة الطبقة الارستوقراطية المؤيدة من رجـــال الدين هو

خروج على الدين نفسه .

ولكن الثورة صمدت امام الرجعية الداخلية ومناصريهـــا الخارجيين ، بعد عراك مرير دام اكثر من ست سنوات ، فاستتب لها الامر ، ومشت في طريقها عـلى جثث الكثيرين من الذين عملوا سراً وعلانية على كبحها . ولم تخل السنوات الاولى من تـدابير ارهابية ، حتى اذا ما بدأ الجو يصفى واخـــذ النظام الاشتراكي بالاستقرار ، خفت الموجة الارهابية وبدأت الحملة التنظيمية في سبيل خلق عالم اشتراكي . فاذا قلنا ان النظام السوفياتي قـام على سفك الدماء فلا نقول غـير الحقيقة ، اذ لو لم تكن الثورة ثورة دموية لمـا استطاعت ان تقلب الاوضاع القيصرية التي كانت تساعدها الدول الاجنبية والعقلية الرجعية المسيطرة على الشعب الروسي عن طريق الكنيسة الروسية صاحبة النفوذ الاكبر في ذلك الحين .

ولكن الثورة الدموية تحوّلت الآن الى ثورة فكرية اندمجت فيها العامة ، عندما رأت هذه انهـــا خرجت من حالة العبودية ولا سيما الاقتصادية منها ، واصبحت سيدة نفسها ، وعندما رأت ان النظام الجديد فتح لها آفاق الحياة والعمل . فلم يبقَ هناك اقطاعيون يستعبدونها ويستثمرونها ، تاركينها في دياجير الجهل . فالنظـــام السوفياتي اليوم هو في مصلحتهـــا . التعليم من حقها ، والصحة مضمونة لها ، وابواب التقدم لم تعد مغلقة في وجهها . ومهما قيـل ان العامة لا تزال على شيء من الحرمان ، فهذا الحرمان لا يقاس ابداً بما كانت تقاسيه في العهد الماضي ، ناهيك عن ان الحرمان ليس مقتصراً عليها وحدها ، فلم يبق هناك طبقة مترفة عـــلى حسابها .

واذا وجد اناسٌ ينعمون اكثر من غيرهم ، فلان الكفاءة وحدها اصبحت ميزان النعم .

يخطىء من يعتقد ان النظـــام السوفياتي قائم على الارهاب . فالقسوة في تطبيق العدل لا تسمّى ارهاباً ، الا اذا اردنا ان نسمّي الفوضى حرية . فاذا احتفظت الدولة بحق السهر على النظام وبالمحافظة على توزيع الحقوق ، واذا هي قضت بان تكون الصحافة اداة توجيه لا اداة نهش ، فلانها تريد ان تحافظ على هـــذا النظام من اي تعرض

لا خطر على النظام السوفياتي من الداخل . واذا كانت الضمانة عليه ارتكزت ، في المرحلة الاولى ، على القوة فهي ترتكز الآن على قناعة الشعب بحسناته . فكل أمل يساور المعادين الخارجيـــين بتقويضه من الداخل هو املٌ ضائع .

ان الخطر الوحيد الباقي على النظام في الاتحاد السوفياتي هو الذي قد يأتيه من الخارج . وهو ما ينتج عن حرب بـــين العالم السوفياتي والعالم الانكلوسكسوني ، يغلب فيه الاول على امره ، فيفرض عليه قاهره النظام الذي يدبره له . وهـذا الخطر بنظري بعيد الوقوع كما يتبين من جوابي على السؤال الثالث .

٢ — الجواب على السؤال الثاني

انه يتعذر بان يطبق نظـــام في بلدٍ ما على بلد آخر بجملته وحذافيره . ان نظام كل بلد يجب ان يستخلص من حضارتـــه ومن درجة رقي سكانه ووعيهم وعاداتهم وتاريخهم وامزجتهم . فما

الرجاء من القارىء الكريم ان يجعل ارقام الصفحات التالية كما يـــلي :

صفحة	تصبح	صفحة
١٤٤	«	١٤٢
١٤٢	«	١٤٣
١٤٣	«	١٤٤

ويقرأ الصفحات حسب الترقيم الجديد .

يوافق روسيا لا يوافق انكلترا ، وما يوافق انكلترا لا يوافق فرنسا وما يوافق هذه لا يناسب الصين او اليابان . وهلمجرا .

ان الحالة التي كانت توجد فيها روسيا في العهد البائد لم يكن من الممكن اصلاحها بدون الثورة . وان سنة التطور الطبيعي ما كانت تستطيع ان تسير بالبلاد نحو الرقي والعمران . فالرجعية كانت خانقة . والاكثرية الساحقة من السكان كانت مستعبده للاقلية الحاكمة . والعامة كانت تتخبط في حالة الفقر والبؤس والجهل المطبق . فكان لا بد والحالة هذه ان يعمل التطرف ما يعجز عنه التطور . ولذلك وجدت الثورة لها حقلا خصباً وفسيحاً اذ هي اخذت بنصرة الاكثرية العامة ، فكان لا بد من نجاحها .

اما في البلدان التي هي على حالة اجتماعية اكثر رقياً مما كانت عليه روسيا قبل الثورة ، والتي لا توجد في عامتها تلك الحالة الفقرية والبؤسية والاستعباد كما كانت العامة الروسية ، والتي هي على شيء من الديموقراطية الواقعية مهما كان في هذه الديموقراطية من الملابسات ، فان النظام الثوري لا يجد مبرراً له فيها كما وجد في روسيا القيصرية .

ان النظام القائم في روسيا السوفياتية فيه كثير من الحسنات هذا لا شك فيه . كما ان فيه كثيراً مما يحسن اقتباسه عنه في البلدان الاخرى . واني اجيز لنفسي القول ان غلق الاتحاد السوفياتي ابوابه وعزلته على نفسه هو من الاسباب التي تخلق في العالم روح الحذر والارتياب ، وتفسح المجال للدعايات الباطلة التي يقوم بها اعداؤه .

الخارج واحداث انقلاب عالمي يفرضون بواسطته نظامهم على العالم.

والسوفيات بدورهم يتهمون الرأسمالية الانكلوسكسونية بالكيد للاتحـــاد السوفياتي والعمل على خلق تكتل دولي تحت نفوذها لتشن منها حرباً هجومية تستطيع بواسطتها بسط نفوذهـا الاستعماري على العالم ايضاً .

والجبهتان تتذرعان بذريعة واحدة، هي الانتصار للديموقراطية او الغيرة على الحرية .

مسكينة الحرية كم من الجرائم ترتكب باسمها !

انا أعلم ان تقوم ثورة او حرب اهلية من شعب ضـد حاكم ظالم او سلطة مستبدة في سبيل حرية الشعب . ولكني عندما اراجع التاريخ لا أجد حرباً اضرمتها دولة ضـد دولة ثانية ، إلا وكان الدافع اليها إما طمعاً في توسع واستعمار ، او كبحاً لغاية استعمارية تعمل اليها دولة ثانية مهددة بذلك مصلحة الدول الاخرى .

إذن ، المصلحة وحدها هي محور الحروب الدولية . حبـذا لو يترك المحاربون هذه الحرية المسكينة التي ما نكدها شيء اكثر من المظاهرة بالغيرة عليها من ذوي المطامع والاحقاد .

فهل للاتحاد السوفياتي مصلحة في اثارة حرب ؟

انا اعتقد عكس ذلك تماماً . فالبلاد التي مساحتها عشرون مليون متراً مربعاً او اكثر ، ذات غنى لا حدّ له ، والقسم الاكبر منها غير مستثمر بعد ، والتي يقرب عدد سكانها من المائتي مليون ، بحاجة للسلام اكثر مـــن غيرها . انه يقتضي على الاقل خمسين سنة من العمل المستمر للاتحاد السوفياتي ليستثمر اراضيه . ولا يعقل ان

بلاداً هذه سعة ارضها تفكر باستعمار خارجي قبل ان تستعمر ارضها فلا هي مفتقرة الى مواد اولية ولا هي بحاجة الى اسواق تجارية . فاين المصلحة اذن للاتحاد السوفياتي في الحرب ؟ ايثيرها حرباً مثالية ؟ ما عرفت ان المثالية كانت مرة الدافع للحرب . حتى الحروب الصليبية التي اثيرت باسم الدين كانت في الحقيقة حرباً مصلحية استعمارية . والمعروف عن اقطاب السوفيات انهم واقعيون . فليس من الواقعية في شيء ان يزجوا بلادهم في حرب لا بد من ان تمنعهم عن تعمير بلادهم واستثمارها حتى في حالة الفوز . انما الذي يشغل بال السوفيات ، على ما يبدو لي ، هو ان يتحصنوا ضد اي هجوم قد يأتيهم من الخارج ، فيفسد عليهم ما هم جادون للوصول اليه ، ومع اقراري باني لست ممن يدركون السياسة الدولية ولا سيما الحربية منها ، وعلى قدر ما استطعت تفهمه ، ان بمحادثاتي مع بعض ذوي الكلمة والراي ، او من اختباري لسير العمل في النواحي الاقتصادية والانتاجية والعمرانية ، استطيع القول ، ولو على سبيل التقدير ، انه لا يمكن في حالة وقوع حرب ثالثة ، ان تكون روسيا هي البادئة . اما ان تكون روسيا مطمئنة الى دفاعها ، فهذا ما لا مجال للشك به .

ان روسيا تنظر بعين الحذر الى ما يبدو لها من السعي القائم لايجاد تكتل شرقي في بلدان الشرق الاوسط . وهي تراقب عن كثب المناورات الرامية الى ايجاد كتلة شرقية او الى تكبير سوريا واندماج الاقطار العربية في حلف مع تركيا . وهي تعرف ان هذه المناورات مصوبة ضدها . وهي تعجب كيف يرضى بها العرب

قد يكون للاتحاد السوفياتي عذر لهذه العزلة لا ادركه انا، ولا يدركه الا هو ، ولكن المجهول لا يسلم من الحذر ولا يسلم من الريبة . فما ضرّ العالم السوفياتي لو فتح ابوابه للعالم الآخر ، وهو الامين من نفسه والواثق بنظامه كما شهدت وخبرت في هذه الرحلة التي قمت بها ؟

قلت ان ما من بلدٍ يوافقه تقليد نظام بلدٍ آخر تقليداً اعمى . ولكن يجدر بالبلد الواحد ان يقتبس عن غيره ما يجد فيه الصالح لنفسه معرضاً عما لا يأتلف مع طرق معيشته ودرجة رقيه وعادات اهله ومفاهيمهم للحياة . وباعتقادي ان الاتحاد السوفياتي باغلاقه بابه للعالم يخطىء تجاه نفسه وتجاه العالم . انه يخطىء تجاه نفسه لانه يفسح المجال للحذر منه كما يفسح المجال ايضاً لاثارة البغضاء عليه ، ويخطىء تجاه العالم بحرمانه اياه من التحكك به والتمثل بما في نظامه من الحسنات وهي ليست مما يجوز تجاهلها .

ان من المستحيل ان يعم العالم نظام واحد ،غير ان العالم بحاجة الى التقارب والتمازج ، فبهذا فقط يأمل العالم الحصول على السلام المنشود .

٢ ـ الجواب على السؤال الثالث

تكثر الاحاديث عن وقوع حرب عالمية ثالثة . فالاميركان والانكليز ، ولا سيما الاولون ، يتهمون السوفيات بالتعدي على حريات الشعوب المتاخمة ، وبالقيام بدعاية واسعة النطاق لقلب نظم الدول المحيطة بالاتحاد السوفياتي بغية التغلغل عن طريقها الى

في مختلف اقطارهم بينما هم يقيمون القيامة على السياسة الاستعمارية في فلسطين وفي مصر حتى وفي العراق ، بينما هم في الوقت نفسه يتظاهرون بالعداء لروسيا .

لقد تحدثت مع احد وزراء الدول العربية في موسكو فقال لي : ان العرب احرار في مناهضة النظام الشيوعي وعدم ملائمته لهم ولكن مظاهراتهم العدائية للاتحاد السوفياتي كدولة كبرى واشراكهم نظام الحكم بالسياسة الدولية او انصياعهم الى سياسة الدول التي يشكون من استعمارها لهم، فهذا بنظري خيانة وطنية. فالعرب يجب ان يحتفظوا بصداقتهم لجميع الدول ويجب ان يستفيدوا مما يقوم بينها من التناحر دون ان ينساقوا الى جبهة من الجبهتين .

لم اسمع في اثناء رحلتي احاديث عن توقع نشوب حرب ، واذا اراد القاريء ان ينسب هذا الى تكتم السياسة السوفياتية وحصرها بالقادة، فهذا لا يمنعني من القول ان الجو الذي شاهدته اثناء وجودي هناك لم يكن جواً حربياً . وانا من الذين يعتقدون ان الحرب ليست مما يستحيل اجتنابها . فبالرغم من بعد الشقة بين النظريتين والنظامين ، فالعالم يستطيع ان يعيش بسلام اذا لم تعصف به اهواء الطمع من الذين يطمحون بحرق الدنيا ليعيشوا هم على انقاضها . فاذا وعت الشعوب ووقفت بوجه هذه الطغمة الطمّاعة، اينما وجدت حق للعالم ان ينشد سلاماً شاملا وحياة انسانية مباركة. والويل للشعوب كلها من انتصار الطمع على الحق والويل للحرية من الذين يستغلون الحرية .

انتهى

فهرس

	صفحه
المقدمة	٥
الفصل الاول : عالم جديد	١٣
الفصل الثاني : ركنا النظام السوفياتي . المعمل والكولخوز	٢٩
الفصل الثالث : التجارة في المخنق	٣٨
الفصل الرابع : حرم عليك الجهل	٤٤
الفصل الخامس: الطب في الاتحاد السوفياتي	٥١
الفصل السادس: المرأة . الطفل . العائلة	٦٦
الفصل السابع : بين الروح والمادة	٨٥
الفصل الثامن : لينينغراد	٩١
الفصل التاسع : الى طشقند	٩٨
الفصل العاشر : على بساط الريح الى مدينة الريح	١١٣
الفصل الحادي عشر : بين الديموقراطيتين	١٢٠
الفصل الثاني عشر : بعد العوده	١٣٦

T

انتهى طبع هـــذا الكتاب على

مَطابعُ الكشّافِ

S back

نيسان ١٩٤٧

7252
PB-39476-SB
542-17
5-cc

Date Due

Demco 38-297

NYU - BOBST
31142 02605 7722
DK601.2 .H3
Ana aid min Musku

NYU

BOBST LIBRARY
OFFSITE